الهند
قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه

اللواء الركن

محمود شيت خطاب

مجلة المجمع العلمي العراقي

ربيع الأول 1401 هـ / كانون الثاني 1981

المجلد الثاني والثلاثون، الجزء الاول والثاني



الهند قبل الفتح الإسلامي وفي أيامه

اللواء الركن
محمود شيت خطاب

من التاريخ

١ـ المعنى والحدود :

لم تكن الهند في القديم هي شبه القارة المترامية الأطراف المتعارف عليها في العصور الحديثة ، إذ كانت هذه التسمية يضيق مدلولها حيناً ، فلا يُعْرَف به إلاّ شُقَّة ضيِّقة من الأرض ، أو يتسع اتّساعاً كبيراً حيناً آخر ، فيشمل رقعة واسعة من جنوبي القارة الآسيوية .

واختلف الناس في منشأ تسمية هذه البلاد ، فمنهم مَنْ نسبها إلى الإلّه (إندرا) إلّه الهند القديم ، ومنهم من ردّها إلى اسم نهر (السِّنْد) [١] الذي كان يعرفه الفرس القدماء باسم : (هِنْدهو) أي النهر ، جرياً على عادتهم في إبدال السين السنسكريتيّة هاءً ، وكان نفوذ الفرس قبل غزو الاسكندر للهند قد عمّ الجزء الغربي من هذه البلاد وتوغّلوا فيه . وهؤلاء الفرس هم الذين أطلقوا كذلك اسم : (الهندستان) أي (أرض الأنهار) على القسم الشمالي بأكمله من هذا الاقليم .

وشبه القارة الهنديّة تضمّ اليوم ثلاث جمهوريات : باكستان ، وبنكلاديش ، والهند ، وهي كتلة بالغة الضّخامة من اليابسة ، تصل مساحتها إلى المليونين من الأميال

(١) يعرف باسم : نهر الأندوس .

المربّعة ، أي ما يزيد على نصف مساحة القارة الأوربية ، فيها تمثيل لمختلف عروق الانسان وما عرفه من فنون وآداب وعلوم ، وما اعتنقه من مختلف العقائد منذ ظهور الوثنية حتى اهتداء الناس بالتوحيد . وفيها أنواع الأجواء المتباينة من الصّقيع وثلوجه في الهملايا ومرتفعاتها بالشمال ، إلى قيظ المناطق الاستوائية وشواطئها بأقصى الجنوب. وفيها أيضاً من صنوف الحيوانات والطيور والنباتات والمعادن ما يصلح لأن يكون إجمالاً لما بالعالم كلّه منها ..

يحدّها من الشمال جبال الهملايا ، ومن الغرب جبال هندكوش وسليمان حيث تقع إيران وأفغانستان ، ثم تمتد الهند إلى الجنوب في شبه جزيرة يقع بحر العرب في غربها وخليج البنغال في شرقها وسيلان في طرفها الجنوبي ، ويتجه الاقليم الشمالي منها الى الشرق حتى جبال آسام .

٢ — الهند القديمة :

كان في الهند حضارات مزدهرة أيام كان المصريون يقيمون أهراماتهم قبل المسيح بثلاثين قرناً ، فقد كشفت بعثة مارشال في حفرياتها عند (موهنجو دارو) في غربي السند عام ١٩٢٤ م ، عن آثار يرجع تاريخها إلى عصر الأهرامات ، لمدنية عريقة كانت تسود البلاد حينذاك ، وكان أصحابها على صلات اقتصادية وثقافية وسياسية ببابل في وادي الرافدين .

وهذه المدن التي كشفت عنها هذه البعثة ، حوت دوراً من عدة طبقات مبنية بالآجر المتين ، وإلى جوارها الحمامات والآبار ، وفيها آنية من خزف مصقول وزخارف من الخشب والمعدن ، وأسلحة دقيقة ، وأدوات للزينة لا يتداولها غير أرقى المجتمعات .

ولكن قلة الوثائق التاريخية القديمة عن الهند ، وصعوبة الاستدلال على ماضيها من نقوشها وأطلالها ، جعل المؤرخين يستقرئون كتب الهند الدينية القديمة وملاحمها ، وما حوت من أكداس الأساطير ، لاستنتاج شيء عن بعض نواحي التاريخ الهندي القديم وأحداثه .

وحمد جمهرة المؤرخين المؤرخي المسلمين ورحالتهم جهدهم العلمي البارز الموفّق حمداً جعلهم يقررون بأنّ أظهر أدوار الهند التاريخية لم يبدأ إلاّ بتدوينات هؤلاء العلماء [1] .

وقد غزاها الفرس (الآريون) قبل الميلاد بنحو ألفي سنة ، وذكر قسم من المؤرخين أن الغزو كان قبل أكثر من أربعة آلاف سنة .

وكان للفرس أثر كبير في تاريخ الهند ، إذ يعزى إليهم تكوين اللغة السنسكريتية التي يقول علماء اللغات إنها تشبه اللغات الأوروبية القديمة كاللّاتينيّة والقوطيّة والفارسية القديمة ، مما جعلهم يحكمون بأن أصلها جميعاً واحد . وقد تولّد من استعلاء الفرس الفاتحين على سكّان الهند الاصليين ومن احتكاكهم بهم ، تلك التقاليد الهندوسيّة التي اعتبرت على مرّ التاريخ ديناً يدين به الهنود ويلتزمون بآدابه .

وقد استولى هؤلاء على إقليم السند والقسم الشمالي الغربي من الهند ، فاستخدموا السكّان وفيولهم في جيوشهم ، وحاربوا بهم اليونان في القرن الخامس قبل الميلاد .

واكتسح الاسكندر بلاد فارس وافغانستان ، ونفذ من محور مدينة كابل إلى إلى السِّند ، فدخله سنة (٣٢٦) ق . م بعد أن عبر جبال (الهندكوش) ، فطفق يتجوّل بالبنجاب عاماً كاملاً ، حتى إذا ما عزم على المضي بالغزو قدماً بعدما هزم (پورس) ملك الهند ليبلغ البحر في ناحية الشرق ، فيقيم له إمبراطورية هندية ، عارضه رجاله الذين لم يصبروا على احتمال حر الهند مع ما عاودهم من الحنين إلى بلادهم ، فاستدار بهم عائداً إلى وطنه بعد أن ترك حاميات له في الهند ، ولكن هذه الحاميات تلاشت في بضع سنين من رحيل الاسكندر عن الهند .

ومن الواضح أنّ غزو الاسكندر للهند لم تكن له نتائج سياسية ، بينما كان له نتائج حضارية ، إذ وُصلت الهند بأوروبا بصورة مباشرة وبشكل أعمق عما كانت عليه من قبل ، فالواقع أنّ الهند كانت على اتصال بالغرب قبل غزوة الاسكندر ،

(١) حضارات الهند (٢٠٦) .

فقد عرفت الهند الاغريق عن طريق فارس ، كما عرف الأغريق الهند عن طريقها أيضاً . فقد كانت الأقاليم الغربية لنهر السِّند تكوِّن الامبراطورية الفارسية في عهد (دارا) ثم في عهد ابنه ، كما شارك الهنود في الجيش الذي قاده ابن (دارا) إلى اليونان ؛ وقد وصف (هيردوت) جنود هذه الحملة بأنهم كانوا يحملون أقواساً من الغاب وحراباً قصيرة ، وأنّ الهنود منهم كانوا يرتدون بزّات من القطن ويحملون أقواساً من الخيزران وسهاماً ذات رؤوس مصنوعة من الحديد .

وقد عمل هذا الاحتكاك بين الاغريق والهنود على إلتفات الهند نحو اليونان ، وكما نقل الاغريقيّ إلى بلاده أقاصيص الهند وأساطيرها التي سمعها من البلاط الفارسي ، فقد شرع الهنود يهتمّون بالاغريق أيضاً . ويحدّثنا (أرسطو) عن فلاسفة من الهند قدموا (أثينا) لمحاورة (سقراط) ومناقشته في المشاكل الفلسفية التي يعالجها المفكر اليوناني .

لقد كانت هناك صلة بين الهند والاغريق ، ولكنها زادت واتّسعت بعد غزو الاسكندر .

وظهر في الهند أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ، إمبراطورية (الموريا) الهندية التي اتخذت لها الطاووس شعاراً ، وكانت رقعتها تمتد من البنغال إلى الهندكوش وتضمّ معها (مالوه) و (الكُجْرات) وأرض (كابل) .

وقد كان جندراكُبتا (٣٢١ – ٢٩٦ ق.م) مؤسس هذه الامبراطورية قد أقام زمناً في معسكر الاسكندر ، إذ كان أبوه من زعماء البنجاب الذين وقعوا في أسر القائد المقدوني ، ثمّ نكّل بالحاميات الاغريقية التي خلّفها الاسكندر في الهند بعد انسحابه منها ، وطفق يوسّع من رقعة ملكه .

وذاع صيت هذا الملك الهندي ، حتى بعث إليه (نيكاتور السلوقي) الذي ملك بعد وفاة الاسكندر سورية وبابل ، سفيره (ميغاستين) ، فاطّلع اطلاعاً واسعاً على

أحوال الهند وطبائع أهلها وعاداتهم ، حتى ليُعَدّ ما وصل إلينا من مذكراته من أهم مصادر الهند التاريخية القديمة [1] .

وقد أشاد هذا المبعوث الاغريقي بما كان عليه قصر الملك من الروعة والفخامة ، وما كان يزيِّنه من نقوش وجواهر وعُمد طليت بالذهب . كما وصف الحضارة الهندية التي كانت قائمة إذ ذاك بأنها تساوي أختها اليونانية مساواة تامة . وأثنى الثناء الكثير على شيوع الفضائل ونصرة الحق بين السكّان عموماً ، وانعدام الرق عندهم برغم قيام نظام الطبقات فيما بينهم .

وكان من أهداف هذا السفير ، العمل على تحويل مجرى التجارة الهندية إلى بلاد الشام بدلاً من الطريق البحري الذي ينتهي إلى مصر فتثرى من ورائه [2] .

ودهمت الهند في أواخر عصر هذا الملك مجاعات قاسية اعتزل الحكم بسببها ، فترهب مدى اثنتي عشرة سنة قتل نفسه في آخرها جوعاً على مذهب (مهابير) .

ويعتبر المؤرخون حفيده الملك الفيلسوف آشوك (٢٧١ — ٢٣١ ق . م) أول حاكم واضح الشخصيّة في تاريخ الهند القديم ، وبه يبدأ تاريخ الهند المعماري ، ولا تزال حتى اليوم كثير من عُمُده التي أقامها في أنحاء متفرقة من مدن الهند لتنقش عليها مراسيمه ، هذا فضلاً عن قصوره التي وصفها الرحالة (فاهيان) بأنها كانت من الأعاجيب .

وقد وقف حياته على التعبد والعناية بأمر الدين ، حتى صار داعية البوذية الأكبر الذي أحيا شعائرها من جديد . وقد أمر عماله في أنحاء بلاده كافة أن ينظروا إلى رعاياهم نظرتهم إلى أبنائهم ، ويعاملوهم بالحسنى ، كما بنى دوراً للشفاء وملاجئ للعجزة من الانسان والحيوان ، ثم بعث بمبشري هذه العقيدة إلى خارج الهند ، فبلغوا

(1) Cambridge History of India . pp. 384,467 .
(2). Havell . E .B. . The History of Arayan Rule in India . pp . 75-83 .

مصر واليونان وسورية وبلاد العرب ، كما انتشروا في أواسط آسيا وجابوا التبت والصين واليابان .

وفي عهد هذا الملك ، عرفت الهند النقود أداة تعامل لأول مرّة في تاريخها .

وانتهى أمر أسرة الموريا هذه سنة (١٨٤ ق . م) على أيدى أسرة (أندهارا) التي خلفتها في بلادها .

وظهرت قبائل (السكّا) على حدود الهند الشمالية الغربية ، ولكن أسرة أندهارا تصدّت لهم وأنزلت بهم هزائم كثيرة .

كذلك عبرت قبائل كوشان السيخيّة حدود الهند الغربية وتوغّلت في شمالي الهند حتى (بنارس) ، وفي عهد ملكهم (كِنشكا) ضمّت دولتهم أرض كابل والبنجاب والراجبوتان .

ويُعدّ الملك كنشكا ثاني حماة البوذيّة في السند بعد آشوك ، فقد جمع مجلساً من كهنة البوذية الكبار ، عهد إليهم بتدوين سُنَن البوذيّة ، فبلغت ثلاثمائة ألف نص رفعوا فيها (البِدّ) [1] إلى مصاف الآلهة .

وفي عهد هذا الملك الذي كان على اتصال بالرومان ، راجت الحياة العقلية رواجاً كبيراً ، وازدهرت العمارة والنحت .

ويسود الظلام تاريخ الهند الذي يحرم من وضوح الرؤية حتى بداية القرن الرابع الميلادي ، لتظهر أسرة (كُبتا) الثانية على مسرح الحوادث في شبه القارة الهندية ، فتطرد بفضل ثاني ملوكها (بكر ماديت) السِّيخ أصحاب كنشكا من الهند وتبعد عن حدودها ولاة السكا ، ثم تبسط نفوذها بعد ذلك في الشمال والوسط والغرب وتخضع لولائها الدكن والبنغال وآسام .

وقد تحدّث الرحالة الصيني فاهيان في مذكراته عن ملوك هذه الأسرة ، ووصف

---

(١) يرد ذكر هذا (البد) في سيرة محمد بن القاسم الثقفي فاتح السند .

بلاطهم وما كان فيه من الفلاسفة والشعراء وكُتّاب المسرحيّات . وخلب لبه ما رأى في الهند إذ ذاك من مدن كبيرة تعجّ بالحركة والسكّان ؛ وما صادفه من دور للشفاء مجانية عديدة ورباطات كثيرة ، ومدارس وجامعات تزدحم بعلمائها وطلابها ، ومن بينها جامعة (تكسيلا) السنديّة ومدرستها الطبية المشهورة ، بالاضافة إلى شيوع العدل بين الناس ورخاء العيش .

وفي عهد هذه الاسرة ، نَعِمَ البراهمة برعاية ردّت إليهم سلطانهم ونفوذهم القديم الذي كان آشوكاً قد حدّ منه كثيراً ، فراحوا بعده يحيون تقاليدهم الأدبية من جديد .

وظلّت هذه الأسرة تحكم الهند ، حتى أقبل (الهون) من بلاد ما وراء النهر في القرن الخامس الميلادي ، فقضوا عليها ، في الوقت الذي كانت فيه قبائل أخرى تتوغل بقيادة زعيم الهون الأكبر أتيلا في أوروبا .

وأقام هرشا وكان من سلالة كُبتا إمبراطورية واسعة له في القرن السابع الميلادي شملت آسام والكجرات مع شمالي الهند كلّه ، وكان هذا الملك شديد الرفق برعاياه ، فحدّ من سلطان البراهمة وأخذ بيد البوذيّة من جديد . ويروى عنه أنه كان يتنازل لشعبه عن كل ثروته مرة في كل أربع سنوات ، وقد استنفدت هباته في إحدى هذه المرات كلّ أمواله وأملاكه ، حتى ذهب يستجدي أختاً له رداء قديماً ليتدثّر به ، فما كاد يتناوله منها حتى سجد للبُد حمداً وشكرا .

ويذكر الرحالة الصيني الثاني (هيون تسيانغ) الكثير عن فضائل هذا الملك العابد الذي انتزع الملك من (الهون) ، ويشيد بما كانت عليه حاضرته (قَنّوج) من الروعة والفخامة . وهذه المدينة التي كانت حاضرة أُسرة كُبتا من قبل ، والتي ذكرها الجغرافيّ بطليموس عام (١٤٠ م) باسم : (قَنُّوجيا) ، كانت تقع إلى الشرق من مدينة (أكرا) الحالية على مسيرة كيلومترات قليلة من نهر (الكنج) .

وانفرط مُلك هرشا عقب وفاته مباشرة ، لأن خلفاءه لم يستطيعوا لضعفهم أن يقفوا في وجه الهون التي طفقت تتدفّق من جديد على أرض الهند ، فضربت الفوضى أطنابها في أنحاء البلاد ، وقام بين أمرائها ما يشبه الحرب الأهليّة التي أخذ البراهمة يذكون نيرانها طلباً لزيادة نفوذهم ولاخضاع البوذيّة لسلطانهم .

واستطاعت إمارة (قنّوج) ، بالرغم من انسلاخ الجزء الأكبر من إمبراطوريّة هرشا الواسعة عنها ، أن تحتفظ بمركز الصدارة في شمالي الهند .

وعلى الرغم من أنّ هرشا لم يستطع فتح إقليم كشمير ، إلاّ أنه أفلح في حمل أصحابه على قبول البوذيّة في بلادهم .

أما أقليم السِّند ، فقد خضع طويلاً لقبائل السكا الفارسية حتى انتزعه منهم الملك البرهمي (داهر) ، وهو الذي وجده العرب المسلمون على هذا الأقليم عند غزوهم له .

وتاريخ جنوبي الهند أشدّ غموضاً من تاريخ شمالي الهند الذي لم يرتبط به إلاّ عرضاً ، ولا تشير كتب شمالي الهند وملاحمه ونقوشه وآثاره إلى جنوبي الهند إلاّ إشارات قليلة .

ويرجع ظهور ممالك جنوبي الهند الكبرى، وهي (بنديا) و (كولا) و (جيرا) إلى ما قبل ميلاد المسيح بقليل . وكانت الأولى تقع بأقصى الجنوب ، وكانت على قدر كبير من الثراء وعلى اتصال اقتصادي وثيق بالمصريين والرومان ، كما كانت عاصمتها (ما دورا) من أجمل مدن الهند إذ ذاك . وإلى الشمال منها والشرق كانت تقوم (كولا) ، في حين كانت (جيرا) تقع إلى الشمال من الأولى وإلى الغرب من الثانية.

وتمكّن حكّام (كولا) من الاستيلاء على (بنديا) وبسط سلطانهم على جزيرة سيلان جنوباً ، في حين امتدّ نفوذهم في الشمال حتى البنغال وإن لم يعمِّر طويلاً هناك[١] .

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية (١/٢٦ – ٤٠) ، وانظر تاريخ الاسلام في الهند (١٦ – =

٣ ـ الحضارة :

كان لقدماء الهنود حضارة عريقة ومدنية بلغت من الرقي درجة عالية ، فلم تكن أقلّ شأناً من نظائرها عند اليونان ومصر ووادي الرافدين في القديم .

وتشير الكتب القديمة إلى قيام النظام الجمهوري ، وتتحدّث عن الوزراء والمجالس النيابية والتشريع والقانون والادارة حديثاً ديمقراطياً ، وتصف الملك الهندي بأنه في حقيقته خادم لقومه يحصل على أجره ، وكانت حصّته السدس السنوي من الحاصلات ليعمل به وينفقه على رفاهيتهم .

ولما كانت مساحة البلاد الشاسعة لا تمكّن الحكومة المركزية من الاضطلاع بشئون السكّان في كلّ مكان ، فقد أدى ذلك تلقائياً إلى قيام مجتمعات صغيرة متماسكة في القُرى ترعى شوون نفسها بنفسها في وحدة تامة لا يعلوها سوى الدولة ، فكانت القرية منذ القدم بنظامها السياسي والاجتماعي وطن الهندوكي الذي يقوم على شؤونه الدنيوية والدينية كافة ، ففيه حكومته وقاضيه وكاهنه وطبيبه وشاعره ، ومن حوله أبناء عشيرته الذين يشعرونه بأنه واحد منهم له ما لهم وعليه ما عليهم ، فهو يشاركهم في العمل بأرض القرية التي هي في الغالب مشاع بينهم ، وله من بعد ذلك نصيب من ثمارها ودخلها ، عن طريق العمل أو عن طريق الميراث .

ولم يتعرّض الغزاة وحكوماتهم في الغالب لهذا النظام ، فلم يكن يعنيهم إلا دفع الضرائب لهم ، وكانت حالة الفلاّح الهندوكي عموماً تتراوح بين اليسر والعسر وفقاً لما يطلب به من ضرائب .

والمرأة الهندية كان لها في مجتمعات بلادها القديمة شأن مهم ، فشاركت في الاشتغال بفنون المعرفة ، ولا تزال الهند تتغنى بذكرى (جارجي) التي كان لها شرف الانخراط في سلك الفلاسفة القدماء . وشاركت الهندية كذلك في الدفاع عن بلادها ،

---

٢٠) والهند القديمة (٢١ – ٦٠) والهند (٢٦ – ٤٨) وباكستان (٤١ – ٤٥) والاسلام ظهوره وانتشاره في العالم (٢٦٢ – ٢٦٧) وباكستان (١٤ – ٢٠) والهند والغرب (١٦–١٩)

فحاربت غير مرة بجانب أبطال الهند ، واعتلت المواقد مفضلة الموت حرقاً على الوقوع في أيدي الاعداء .

وقد وصل فنّ العمارة في الهند القديمة إلى ذروة الرقي والجمال الذي تجلى في معابدها الرائعة وأبنيتها الفخمة ، فبهرت أعين الرحالة والمؤرخين من الاغريق والصينيين والمسلمين الذين زاروا هذه البلاد واطلعوا على أحوالها .

أما الصناعات الهنديّة من معدنية وخشبية وحجرية وعاجية وجلدية وصوفية وحريرية وقطنية ، فقد بلغت شأواً عظيماً في الازدهار قبل الميلاد بقرون كثيرة ، وكان لكل طائفة من أبناء الحِرف في الغالب نقابة قوية تنظِّم شؤونهم وتدافع عن حقوقهم .

وحملت قوافل الهند ما بين بريّة وبحريّة منتجات هذه البلاد منذ القرن التاسع قبل الميلاد إلى نواحي العالم القديم مباشرة أو بواسطة بلاد الشرق الواقعة على شواطئ البحر الابيض المتوسط ، فتبارز المقاتلون بسيوف الهند البتارة التي يطلق عليها : (الهندوانية) ، وتعطّر الرجال والنساء بعطورها ، ورفلوا بأقمشتها الحريرية وأزّينت النساء بالحلى الهندية الفاخرة ، وازدحمت الجموع حول الملاعب ليشاهدوا نمور الهند وفيلتها في الميدان .

وكانت الهند حينذاك تتداول ما يشبه خطابات الاعتماد والضمان المتعارف عليها في عالم الاقتصاد اليوم ، وتتعامل بالنقود قبل الميلاد بزمن طويل .

ويذكر الرحالة الصيني هيون تسيانغ الكثير عن انتشار الجامعات بالهند القديمة ، ومنها جامعة (تاكسيلا) التي كانت تشتهر بالبحث العلمي على أيام الاسكندر ، وجامعة (بوجين) الفلكية و (أجانتا) الطبية و (بنارس) البرهميّة و (نالا ندا) البوذية ، ويفيض بحديثه عن الفلسفة الهندية وازدهار العلوم والفنون في هذه البلاد .

والواقع أنّ اشتغال الهنود بالعلوم وتقدّمهم فيها قديم جداً ، فعالمهم (آريه‌بهت) الذي ترجم العرب كتبه أيام العباسيين ، هو الذي سبق إلى اثبات دوران

الأرض حول محورها ، وأعلن عن كرويتها ، وعلّل أسباب الكسوف والخسوف والانقلابين والاعتدالين في الفصول الأربعة ، كما تحدّث عن قيمة النسبة التقريبية المستعملة في حساب مساحة الدائرة ، ووضع كثيراً من قوانين حساب المثلثات والجيب

وخلف هذا العالم رياضي آخر يدعى (براهما كوبتا) وطائفة من الفلكيين قسموا العام إلى اثني عشر شهراً ، وكلّ شهر إلى ثلاثين يوماً ، وحسبوا بدقة بالغة مواقع النجوم في أفلاكها ، وبحثوا في قوانين الجاذبيّة ، كما ابتكروا فكرة السلبية في الجبر ، وعالجوا الجذور وقواعد التبادل والتوافق .

وكذلك نبغ الهنود في الكيمياء ، فصهروا الحديد وبلغوا بالصلب درجة عالية لم يصل إليها غيرهم ، حتى اعتبر الاسكندر هديتهم له منه من أنفس الهدايا ، فآثرها على الذهب والفضّة ، ولعلّ ذلك كان مردّ شهرة أسلحتهم وسيوفهم .

كما تفنّنوا في الصباغة والدباغة وصناعة الزجاج والصابون ، وكلّسوا وقطّروا وحضّروا الأملاح على اختلاف أنواعها .

وكما تفوّق الهنود القدماء على الاغريق في نواح من الرياضيات كثيرة ، كذلك تفوقوا عليهم في العلوم الطبيّة ، فقد كانوا على إحاطة تامة بتشريح الجسم ووظائف الأعضاء والفضلات والأنسجة وتركيبها وخواصها ، كما استنبطوا ضروباً من المخدّر استعانوا بها على إجراء الجراحات الكثيرة التي كانوا يحذقونها ، واهتدوا إلى لقاح الجدري قبل الميلاد بخمسة قرون ، وتمكنوا من تشخيص المرض بمجرد النظر الى بول المريض .

كما أنّ الفلسفة الهندية قد ذاع صيتها قبل أن يشتهر أمر الفلسفة اليونانية بزمن طويل ، والمعروف أن فيثاغورس الفيلسوف اليوناني الذي عاصر بوذا ، قد شغل بعلوم الهند في القرن السّادس قبل الميلاد ، أي قبل أن يغزو الاسكندر الهند بأكثر من قرنين ، ويُرْوَى أنّ فلاسفة من الهنود زاروا أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد ، وناظروا سقراط فسخروا منـه .

ومن بين فلاسفة الهند القدامى ، فيما قبل عصر الاسكندر ، الفيلسوف كابيلا ، أول من قال بمقدرة العقل البشري واستقلاله وحريته الكاملتين .

ولم يكن عمل الهنود بالآداب السنسكريتية وغيرها من الآداب الهندية الأخرى وسموّهم بها ليقلّ عما فعلوه بالفلسفة ، وهناك في تراثهم من القصص والملاحم والتمثيليات والشعر ما يشهد بطول باعهم في هذا المضمار [١].

وقد انفرد أبو الريحان البيروني في العربية بأول وأكبر حديث على الهنود وحضارتهم ومدنيتهم ، وأثبت وجود مبدأ التوحيد عندهم [٢] .

لقد كان للهند القديمة حضارة عريقة أصيلة .

طبيعة الهند

١ — السطح :

الهند شبه قارة عظيمة المساحة ، تمتد في جنوبي آسيا من هضبة أفغانستان في الغرب ، إلى شبه جزيرة الهند الصينية في الشرق ، ومن جبال هيملايا في الشمال إلى المحيط الهندي في الجنوب .

ويتكون القسم الجنوبي من هذه البلاد العظيمة من شبه جزيرة مثلثة الشكل لها سواحل في الغرب على بحر العرب وسواحل في الشرق على خليج البنغال ، وتطلّ على المحيط الهندي في الجنوب برأس بارز هو رأس كومورين الذي هو أبعد أجزاء الهند نحو الجنوب .

والسواحل الغربية والشرقيّة منتظمة تكاد تكون مستقيمة فيما عدا جزيرة كاثيادار التي تقع بين خليج كتش في الشمال وخليج كمباي في الشرق .

(١) انظر التفاصيل في تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/٤٠ — ٤٦) .
(٢) انظر كتابه : « ذكر ما للهند من مقولة مقبولة للعقل أو مرذولة » — ص (١٣) من طبعة زاخاو بلندن — ١٨٨٧ — « واعتقاد الهند في الله سبحانه وتعالى أنه الواحد الأزلي من غير ابتداء ولا انتهاء » .

أما القسم الشمالي من الهند الاصلية الذي يمتد من بلوجستان غرباً إلى آسام شرقاً ، فهو مساحة عظيمة من الأرض المنبسطة ، تقسمها بعض المرتفعات إلى حوضين عظيمين ، وتمتد هذه المرتفعات بالرغم من قلة ارتفاعها حتى تبلغ جبال هيملايا جهة الغرب إلى كشمير التي تبلغ في امتدادها نحو الشمال إلى عقدة البامير وإلى جبال كركورم في الشرق من هضبة البامير ، وجبال هندكوش في الغرب من تلك الهضبة .

وإذا نظرنا إلى خريطة لتضاريس الهند ، لوجدنا أنه يمكن تقسيم السطح إلى ثلاثة أقسام رئيسة : الجبال الشمالية ، والسهول الشمالية ، وإقليم الدكن :

٢–الجبال الشمالية :

هذه هي سلسلة جبال هيملايا وما يتبعها من سلاسل جبلية في الغرب والشرق ، وتمتدّ بانحناء قليل نحو الجنوب على شكل قوس شاهق الارتفاع ، يتكوّن من ثلاث سلاسل متوازية تنتهي إلى هضبة التبت . وهي حائط منيع يبلغ طوله (١٥٠٠ ميل) أو أكثر ، يفصل الهند عن أواسط آسيا ، إذ لا تخترقها إلا بعض الممرّات الوعرة التي توصل بكثير من المشقّة إلى هضبة التبت .

وهذه الجبال هي أعلى جبال في العالم ، وقمتها المشهورة (أفرست) تبلغ (٢٩٠٠٠ قدم) ، وهناك قمم أخرى كلّها تزيد على (٢٧٠٠٠ قدم) .

وفي غربي كشمير تمتد سلاسل هندوكوش التي ترتفع أكثر من (١٥٠٠٠ قدم) والتي كثيراً ما لقى الهنود مصرعهم تحت ثلوجها ، ولهذا عرفت بأنها مصرع الهنود (وهو معنى هندوكوش) . ويتصل بها من الجنوب مجموعة من المرتفعات التي تعتبر الحد الفاصل بين سهول نهر السند وهضاب أفغانستان وإيران . وأشهر هذه المرتفعات هي : جبال سليمان التي تمتدّ من الشمال إلى الجنوب موازية لنهر السند ، وفي هذا الجانب من شمال غربي الهند ، نجد عدّة ممرات أشهرها ممر خيبر الذي يعتبر الباب الشمالي الغربي للهند ، والذي جاء منه المهاجرون والغزاة في تاريخ الهند

منذ قدوم الآريين . كما يوجد ممر آخر في الوسط اسمه : ممر بولان متوسطاً بين جبال هندوكوش وساحل بحر العرب ، ومن ممر خيبر جاء الاسكندر الأكبر بحملته المشهورة إلى الهند ، وعند عودته طرق ممر بولان كما استخدم الطريق الساحلي في إقليم (مكران) في بلوخستان .

أما الجانب الشمالي الشرقي بين الهند وبورما ، فنجد قوساً من الجبال بين الهيملايا وجبال باتكاي ، وبينهما سهل يجري فيه نهر برهما بترا . وتتصل بهذه الجبال سلسلة تمتد من الشرق إلى الغرب وهي جبال خاسي التي تقع في جنوبها بلدة شرابونجي التي تشتهر بأنها أكثر جهات العالم مطرا . وإذا تتبعنا جبال باتكاي نحو الجنوب ، وجدنا جبال (مانيبور) ثم جبال (أراكان يوما) التي تمتد من الشمال إلى الجنوب ، وهذه الجبال هي حدود طبيعية تحمي الهند من هذا الجانب ، وفيها بعض المسالك الطبيعيّة التي توصل بين الهند وبورما .

ولجبال هيملايا (أو جبال هيمافات في الأساطير القديمة) أهمية كبرى في تاريخ الهند القديم ، فقد تصوّر الأقدمون أنّ هذه الجبال الشاهقة التي لا يستطيع الانسان أن يصل إلى أعاليها والتي تغطيها الثلوج ، هي موطن الآلهة ، فهي أقرب الأماكن إلى السماء . وقد أصبحت منابع الأنهار في هذه الجبال أماكن مقدّسة يحج إليها الهندوس ، وفي سكونها يجدون مجالاً للتدبّر والعبادة .

٣ـ السهول الشمالية

وهي سهول هندوستان التي تمتد من الغرب إلى الشرق ، من الحدود الغربية إلى الحدود الشرقية للهند الأصلية .

وتنقسم هذه السهول إلى قسمين : أحدهما سهول السِّند التي تمتدّ من كشمير شمالاً إلى بحر العرب جنوباً . والثاني ، سهول الكنج وبراهما بترا التي تمتدّ من المنطقة التي تفصل بين حوض الكنج عن حوض السِّند إلى المرتفعات الواقعة في الطريق الشمالي الشرقي وإلى خليج البنغال .



قمة أفرست في جبال الهملايا

وتعتبر هذه السهول من أخصب بقاع العالم ، وهي قليلة الانحدار وبخاصة قرب الساحل وينحدر نهر الكنج من دلهي إلى المصب نحو (٦٠٠ قدم) في مسافة تزيد على ألف ميل .

وفي هذه السهول قامت الامبراطوريات العظيمة التي امتدّ سلطانها حتى شمل جميع أنحاء البلاد .

وينبع السِّند وبراهما بترا من السلاسل الشمالية لجبال هيملايا من منبعين متجاورين ، ويتّجه السِّند نحو الغرب وبرهما بترا نحو الشرق . ويخترق نهر السِّند مرتفعات كشمير مكوِّناً وادياً عظيماً هو أهم أجزاء كشمير ، ثم ينحني إلى الجنوب الغربي ويستمر في اتِّجاهه مخترقاً الجبال ، حتى يصبّ به نهر كابل الذي ينبع من هضبة أفغانستان ، ويستمر النهر موازياً للجبال الممتدة في الغرب حتى يصبّ في بحر العرب .

ولنهر السِّند أربعة روافد عظيمة في البنجاب ، والبنجاب أرض الأنهار الخمسة .

أما نهر براهما بترا (ابن براهما) ، فينبع من هضبة التبت ويعرف هناك باسم : تسامبو ، حيث يتّجه من الغرب إلى الشرق موازياً لسلسلة الهيملايا ، ثم ينحني نحو الجنوب قاطعاً الجبال من الشمال إلى الجنوب مخترقاً منطقة كثيرة الأخاديد والمنحدرات ، ثم ينحني مرة أخرى نحو الجنوب الشرقي ويخترق السهول إلى الشمال من تلال : (ناجا) وتلال (خاسى) ، ثم يتحوّل مرة أخرى حول تلك التلال نحو الجنوب ويتّصل بمصب الكنج الأخير من جهة الشرق ، ويطلق على مجراه الأدنى : نهر يا مونا .

وينبع نهر الكنج من المنحدرات الجنوبية لجبال هيملايا ، ثم يصب في خليج البنغال بدلتا عظيمة ، أما حوضه فتبلغ مساحته (٣٠٠٠٠٠ ميل مربع) ،ويتراوح عرض حوضه بين (١٥٠ ــ ٢٠٠ ميل) ، وله عدّة روافد بعضها من الجانب الشمالي وبعضها من الجانب الجنوبي كلّها تنبع من الهيملايا .

أما جبال فنديا ، فهي جبال تمتد من الغرب إلى الشرق موازية لنهر نربادا ، ولا يزيد ارتفاعها على ألف متر فوق مستوى سطح البحر ، ومع ذلك فقد كانت حداً فاصلاً بين السهول الشمالية وهضبة الدكن بسبب ما كان يغطيها من الغابات والأحراش الكثيفة ، وقد حالت دون توغّل الآريين نحو الجنوب ، وقد شبّهها بعضهم بالحجاب الحاجز في جسم الانسان ، فهي تقسم الهند إلى قسمين مختلفين .

وإلى جنوب نهر نربادا يمتد نطاق من المرتفعات يبدأ بتلال (ساتبورا) وجبال (ما يكال) ومرتفعات (شوتا ناجبور) . أما تلال (ساتبورا) ، فهي تمتدّ بين نهر (نربادا) ونهر (تابتي) ، وهي توازي جبال (فنديا) . وأما جبال (ما يكال) فهي سلسلة جبلية تفصل منابع نهر (نربادا) عن المجرى الأعلى لنهر (مهنادى) . وأما مرتفعات (شوتا ناجبور) فهي كتلة جبلية تمتدّ في الشمال الشرقي لهضبة الدكن وتقترب من نهر (الكنج) عند انحنائه نحو الجنوب الشرقي .

أما هضبة (الدكن) ومعناها : (أرض الجنوب) ، فهي هضبة تعتبر أقدم أجزاء الهند ، ويتكوّن معظمها من الصخور المتبلورة الناريّة والمتحوّلة ، ويحدّها من الغرب جبال (غات) الغربية ، ومن الشرق جبال (غات) الشرقية ، وكلمة (غات) معناها المدرّجات ، فإنّ هذه الجبال ترتفع على شكل مدرجات ، وهي ذات انحدار شديد نحو البحر . وتنحدر هضبة (الدكن) من الغرب إلى الشرق انحداراً تدريجياً ، مما جعل معظم أنهار الهضبة تتجه من الغرب إلى الشرق لتصب في خليج البنغال . وأهم هذه الانهار من الشمال إلى الجنوب نهر (مهنادي) ونهر (جود فري) ونهر (كستنا) ونهر (كوفيري) ، وأما الأنهار التي تصبّ في بحر العرب منهما : (نرياد) و (تابتي) ويسيران في مجريين متوازيين تقريباً ، ويصبّان في خليج (كمباي) في بحر العرب .

وفي الشمال الغربي من الهضبة تمتدّ جبال (أرفالى) في إقليم (راجبوتانا) ، وامتدادها من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، وهي كالهضبة من أقدم جبال

الهند . وفي الطرف الجنوبي الغربي لجبال (أرفالي) يقع جبل (أبو) وهو المركز المقدس عند طائفة الجينيّة الذين سيأتي حديثهم وشيكا .

وقد انفصلت عن الهند جزيرة (سيلان) وبينهما مضيق (بالك) ، ورغم اتساع هذا المضيق ، فإنه تعبره عدّة جزر صغيرة منتظمة كالسلسلة بين سيلان والهند ، ويطلق عليها : (قنطرة آدم) ، وذلك لأنّ الأقدمين تصوّروا أنّ آدم عليه السّلام عبر عليها من الجزيرة إلى الهند ،ولهذه الجزر أهميّة في الأساطير الهندية القديمة .

ولكلّ من أقسام الهند الثلاثة : الجبال الشمالية والسهول وهضبة الدكن ، تاريخ طبيعي خاص ، فشبه جزيرة الدكن هي في الحقيقة من الأجزاء القليلة في العالم التي ظلت فوق مستوى سطح البحر منذ أقدم الأزمنة [١] .

أجناس السكان ولغاتهم

١ ـ الأجناس :

كانت الهند في الأزمنة القديمة ملتقى لهجرات كثيرة جاء معظمها من الشمال الغربي ، وجاء بعضها من الشمال الشرقي . وكانت الهجرات التي تصل إلى الهند تتخذ طريقها في السهل الشمالي وتستقر فيه ، ثم تجيء بعدها هجرة جديدة تدفع السّابقة نحو الشرق والجنوب . وفي جنوبي الدكن نجد أقدم عناصر السكّان الذين لجأوا إلى الجبال والغابات ، وقد عبر بعضهم البحر إلى سيلان واستقروا فيها . ولما كانت الهند قطراً متّسعاً متنوّع السطح ، فإنّ هذه الموجات جميعها استقرّت وامتزجت ، وفي بعض الأوقات نشبت بينها حروب ومنازعات . وبالرغم من وجود عدد كبير من الأجناس ومن اللغات ومن الأديان ، فقد امتزج معظم السكّان ، وأصبح للهند طابع خاص ، يتميز بتقاليده وعاداته ، وإن اختلفت عقائده ولغاته .

وأقدم الجماعات التي سكنت الهند ، جماعات من الجنس الزنجي ، انتقلت

(١) انظر التفاصيل في كتاب : الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها (٩ – ١٩) .

اليها من جنوب شرقي آسيا ، وهم قصار القامة لهم صفات الزنوج ، ولكن شعرهم كان مرسلاً يختلف عن شعر الزنوج المفلفل . وقد عاشوا في الغابات معيشة بدائية يجمعون الثمار ويسكنون الأكواخ . وجاء بعدهم جماعة الملايو من سكان جنوب شرقي آسيا ، وهم قصار القامة ، لهم أنف عريض وشعر مرسل وبشرة سوداء ، وقد امتزجوا بالعنصر الزنجيّ وسكنوا معهم الغابات والأحراش في هضبة الدكن ، ويطلق على هذه الجماعات اسم : جماعات ما قبل الدرافيد .

أما العنصر الدرافيدي ، فقد جاء إلى الهند حوالي (٢٠٠٠ ق . م) من ناحية الغرب عن طريق ممرات في جبال سليمان ، ثم انتشر في شمالي الهند وجنوبيها ، ولا يزال للدرافيديين بقايا في غربي الهند في (بلوخستان) ، وهم يكوّنون عنصراً أساسياً في معظم سكّان الهند الحالية . وقد كانت لهم حضارة راقية ، وهم يتبعون جنس البحر الأبيض المتوسط ، ويعتبر الدرافيد عنصراً هاماً في حضارة الهند وثقافتها .

وبعدهم جاء الآريون (الفُرس) ، وهم قوم يختلفون في صفاتهم الجسميّة عن الدرافيديين ، ولعلهم أقرب شبهاً بسكان أوروبا الشمالية ، فهم أكثر بياضاً وميلاً إلى الشقرة من أية جماعة في الهند. ويرجع مجيء الآريين إلى الهند حوالي (١٥٠٠ ق.م) وقد استقروا في سهول السِّند والكنج وطردوا منها الدرافيديين إلا مَنْ بقي تابعاً لهم . وقد منعتهم صحراء (تار) مدة طويلة دون التوغل إلى الجنوب ، وكانت المنطقة التي تفصل بين حوضي السِّند والكنج عظيمة الأهمية بالنسبة لسهول الكنج والسِّند ، وفيها قامت عواصم قديمة كما قامت عاصمة الهند الحالية : دلهي .

وبعد زمن انتشر الآريون في جميع سهول السِّند والكنج واندمجت فيهم العناصر القديمة أو هاجرت إلى الجنوب ، ولهذا نجد الصفات الآرية تسود بين سكان هذه السهول .

ثم جاءت عناصر مغولية عن طريق الشرق ، واستقرّ العنصر المغولي في المنطقة

القريبة من جبال هيملايا وفي آسام والبنغال ، حيث اختلطوا بالعنصرين الدرافيدى والآري .

ثم جاءت هجرات أخرى من التركستان وأفغانستان ، وبعدهم جاءت جماعات أخرى انتشرت في حوضي السِّند والكنج وعرفوا باسم : الهنود البيض ، وقد نشروا الخراب أينما حلّوا .

وقد استطاع الهنود بعد اتحادهم في القرن الرابع الميلادي طرد الغزاة ، ولكن بقي منهم مَنْ استقرّ في البلاد .

وبعد مائتي سنة ، جاءت هجرات من فارس وأفغانستان من العناصر التركية التي تسكن أواسط آسيا [1] .

٢ـ اللغات :

يروج في الهند أكثر من مائتي لغة وما يتفرع عنها من لهجات تربو على الثلاثمائة لهجة .

وتردّ لغات الهند عموماً إلى أصلين أثنين : الأصل الآري ، وإليه ترجع أغلب لغات الشمال وقسم من لغات الوسط ؛ والأصل الدرافيدي وإليه ترد أغلب لغات الجنوب ومناطق متفرقة في الوسط والشرق .

والسنسكريتية هي أشهر لغات الهند الآرية القديمة وأعرقها ، وقد كتبت بها أسفار الهند المقدسة القديمة . ولقد أتى على هذه اللغة حين من الدهر كاد يكون استعمالها فيه مقصوراً على رجال الدين والعلماء ، ولكنها اليوم أصبحت لغة جمهورية الهند الحديثة ، ويصفها بعض اللغويين الأعلام ، بأنها فضلاً عن اتحادها في أصولها مع أغلب اللغات الأوروبيّة ، فانها أكمل من لغة اليونان وأوسع من لغة الرومان أي اللاتينيّة ، وأدق من كليهما .

(١) انظر التفاصيل في الهند وتاريخها وتقاليدها وجغرافيتها (٢٧ - ٣٤) .

وتروج في الدكن والجنوب لغة (تامل) و (تلنجو) ، وهما من اللغات الدرافيدية القديمــة .

وأعظم لغات شبه القارة الهنديّة انتشاراً هي الأورديّة ، وهي لغة آريّة وضـع قواعدها ونحوها علماء مسلمون . وكلمة أوردو ، معناها المعسكر ، والمقصود هنا معسكر أسرى المغول والترك المسلمين حول دلهي ، حيث نشأت هذه اللغة ، فبدأت بالظهور في القرن العاشر الهجري ، وألفاظها مزيج من العربية والسنسكريتية والفارسية والتركية ، وهي في قواعدها آريّة خالصة ، وتكتب بالحروف العربية مع الاضافات الفارسيّة [1] .

معتقدات الهند القديمة

١ . الهندوسية

أ ــ الديانة الهندوسيّة عبارة عن تقاليد وأوضاع تولّدت من تنظيم الآريين لحياتهم بعدما وفدوا على الهند واستعمروها وتغلّبوا على سكّانها الأصليين وطردوهم من ميادين الحياة .

وأعظم وأقدم كتبهم التي تقوم عليها طقوسهم ويستمدّون منها عقائدهم أربعة ، يرجع تاريخ أقدمها إلى (٤٥٠٠ ق.م.) وبعضها إلى حوالي (١٢٠٠ ق . م) . وهذه الكتب الاربعة هي : ركفيدا اولاً ، وسام فيدا ثانياً ، وهما يشتملان على مجموعات من الاناشيد التي كانوا ينشدونها في تقديم القرابين للآلهة . ويكرفيدا وتشتمل على الصلوات والادعية شعراً ونثراً ، والرابعة هي أتهرفيدا تصف عقائـد الجمهور في الأرواح الشريرة والرُّقى والسِّحر ، وهي آخر مجموعة من الكتب ، ولذا ظلّ مدة غير معترف به ، فهو لا يلقى ما تلقاه الكتب الثلاثة السّابقة مـن التقديس .

(١) انظر التفاصيل في : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/٢٤ – ٢٦) .

ومعنى : فيدا المقدّس والفاء تنقط بثلاث نقط فوقها .

وقد لخّص غوستاف لوبون المعتقدات التي جاءت في هذه الكتب في : عبادة قوى الطبيعة أولاً ، وتشخيص هذه القوى باسم الآلهة ثانياً ، واعتقاد خلود الروح ثالثاً على أساس فكرة التناسخ ، وعبادة الأجداد رابعاً ، والميل إلى إخضاع الطبيعة والناس والآلهة لاله واحد أقوى منها وهو الإله : إندرا على العموم خامساً ، وأساس الدين وحقيقته تنحصر في تبادل الانسان قرابينه ويقدّم فواكهه وأن تمنحه الآلهة الكثر واليسر والمطر المبارك والصحة والكنوز سادساً وأخيراً .

ب ــ وقد بدأت فكرة الاشارة إلى الطبقات التي قامت عليها الحياة الاجتماعية للهندوس في الفيدا ، ومن المهم أن نذكر أنّ هذا التقسيم جاء أولاً نتيجة طبيعية لتوزيع الأعمال على الناس في المجتمع ، فقد اقتضت حياتهم أن يقوم بعض الناس بالطقوس الدينية ، بينما يقوم الآخرون بالحروب ، وكان من الطبيعي أن توجد جماعة تقوم بالعمل في الحقول ومطالب الحياة الأخرى ، حتى يتفرّع الكهان والمحاربون لعملهم ، وبالتدريج وجدت الطبقة الرابعة وهي (الشودرا) التي هي أخسّ الطبقات والتي عرفت في العربية بالطائفة المنبوذة أو المنبوذين .

وكانت الفواصل بين الطبقات غير واسعة في مبدأ حياة هؤلاء ، ثم أخذت على ممر الأيام تتّسع وتتشكّل ويوضع لها نظام وحدود .

وقد جاء في شرائع (منو) أعظم شراح الكتب المقدسة الهندوسية ، تحديد الطوائف في الحياة الاجتماعية الهندوسية بأنها اربع طوائف : الأولى طائفة البراهمة أي الكهان ، والثانية طائفة الأكشترية وهي الطائفة المحاربة ، والثالثة طائفة الفيشيّة وهي طائفة الزراع و التجار التي توفّر مسائل العيش للكهان والمجاربين ، والرابعة طائفة الشوادر وهي أسفل الطبقات وليس لها مهنة خاصة ولم يعترف لها بعمل إلا خدمة الطوائف السابقة في أخسّ حاجاتها ، وهي طائفة المنبوذين .

ج — وعلى الرجل أن يتزوّج من طائفته أو من طائفة أدنى منها ، ولكن الرجل الذي يتزوّج بواحدة من الشودرا ، يصبح مفضوحاً مهتوك الستر ويطرد من طائفته ، ويصيبه خزي في الدنيا والآخرة ، فلا يتزوّج نساء الشودرا إلا رجال من الشودرا .

ويمكن للبرهمي أن يتزوّج امرأة كشترية أو من الفيشية ، ولا عكس ، أي لا يصح للمرأة من طبقة عالية أن تتزوّج من طبقة أقلّ منها ، لأنها حينئذ تلد أولاداً يرثون صفات أبيهم التي هي أقلّ من صفات طبقة أمهم .

د — وقد تبلورت الهندوسيّة ذات الآلهة التي لا حدّ لها إلى ثلاثة آلهة : الاول الآله (شيفا Shiva) إلى إله الحياة والتبديل ، والثاني الآله (فشنو Vishnu) وهو الآله الحافظ ، والثالث (براهما) وهو الباريء الخالق وهو أعلاها .

وبموجب هذه الآلهة الثلاثة ، أصبحت المذاهب الهندوسيّة ثلاثة :

أولاً : المذهب الشيفي .

هو المذهب الذي يعبد أتباعه الآله شيفا المختص بالابادة والموت ، أو على فكرتهم في التناسخ ، وهو المختص بالتبديل والتحويل ، إذ أنه لا موت حقيقياً عندهم .

ولم يكتف أتباع هذا المذهب بعبادة الآله (شيفا) ، بل إنهم أخذوا يخترعون له أو بمعنى أصح لعمله واختصاصه رموزاً ترمز إليه ويعبدونها ، وقد أداهم فكرهم إلى أن يتخذوا عضوي التناسل في الرجل والمرأة رمزين لهذا الآله ويعبدونها بعد أن يقيموا لها تماثيل في معابدهم : « فظهر المذهب القضيبي الذي اتخذ عبادة (شيفا) في صورة عضو التوليد موضوعاً له ، فترى جميع معابدهم مملوءة بهذا الرمز ، ويحملون عليهم تصاوير صغيرة له من ذهب أو فضّة على الدوام ، فيقبّلونها بين حين وآخر مصلين لها ، وعضو التذكير يمثّل الآله (شيفا) ، وعضو التأنيث يمثّل زوجته (باروتي أو كالي) ، أي إلّهة الحياة والموت والأم التي خرج العالم منها [1]

(١) حضارة الهند (٦٠٣) .

ويقول جوستاف لوبون تعليقاً على هذا . « ولا تجد عبادة أدّت إلى مناظر مخالفة للذوق والأدب كعبادة (كالى) الهائلة . . . ولا يزال يرى في معابدها من الفحشاء والمنكر والدعارة ما يستحيل وصفه »[1] .

وأكثر ما يكون عبّاد (شيفا) وأتباعه في الوسط والجنوب ، وأتباع هذا المذهب يخطّطون على جبهاتهم عادة ثلاثة خطوط أفقية من الزعفران أو غيره هكذا : (☰)

ثانيا : المذهب الفشني :

هذا المذهب الذي يعبد أتباعه الآله (فشنو) إله الحفظ والحب والجمال .

ولما كان من طبيعة الهندوس أنهم يميلون إلى تمثيل المعاني في صور حسيّة لما يدّعونه من عدم قدرتهم على تعقّل المعاني العليا وإدراكها ، وأنهم لهذا يدعّون أنّ الآله يحلّ في صور مادية يتخذونها معبودات لهم ويقدّسونها تقديسهم الآله نفسه . وغالباً ما ينسى الناس الأصل ويتّجهون بكل تفكيرهم وعبادتهم إلى الرمز ، فقد قال منشئو هذا المذهب : إنّ الآله فشنو يمكن أن يحلّ في كلّ عظيم وبطل من إنسان أو حيوان ، ويضاف حينئذ إلى قائمة المعبودات التي لا تنتهي . وأشهر ما عرف عندهم من الابطال الذين حلّ فيهم الأله فشنو هو : (راما) و (كرشنا) ، فراما هذا إنسان تحوّل إلى إلّه معبود بعد أن حلّ فشنو فيه ، وتورد كتبهم قصته التي يفوق خيالها ما جاء في قصص ألف ليلة وليلة من خيال ، وما جاء فيها من البطولة الخيالية لراما كان مدعاة لعبادة الناس له .

وهذه صورة مختصرة لقصة راما : كان ملك الجن المقيم في (سيلان) قد عبث بالكهّان فسخطت عليه الآلهة ، فعقدت مجلساً لأنقاذ البشر منه ، وقرّرت أن يتجسّد أحدها في صورة إنسان ليقهر ملك الجن (راونا) ، فتجسّد فشنو في صورة البطل (راما) . وحدث أن اعتدى ملك الجن على زوجته راما وهي (سيتا) حيث خطفها

(١) حضارة الهند (٦٠٤) .

من الهند إلى بلاده ، ومع ذلك ظلّت وفيّة مخلصة في حبّها له . ويجتهد راما لمعرفة مكان زوجته المحبوبة سيتا ليستردّها ، ويتعب في محاولته كثيراً ، حتى يتقدم أحد القرود فيكشف له عن مكانها ، فيهجم راما بمساعدة القرود والدببة على ملك الجن ويقضي عليه ، ثم يعود بزوجته راكبين المركبة السحريّة حتى وصلا إلى الهند ، فانتصر بذلك العرق الآري ممثلاً في راما ، وأصبح معبوداً منذ ذلك الوقت ومعه سيتا .

وقد أصبح القرد بسبب هذه المعاونة التي أسداها إلى راما من الحيوانات المقدسة[1] ، وأصبح تاريخ استرجاع (سيتا) وانتصار (راما) عيداً دينياً يحتفل به الفشنويون كلّ عـام .

وبجوار راما وسيتا ، يأتي بطل آخر حلّ فيه فشنو فصار معبوداً كذلك ، وهو (كرشنا Krishna) ، وبطولته تتمثّل في الحب واجتذاب قلوب النساء إليه حتى فُتِنَّ به ، وأصبح هو مع راما يمثلان عاطفة قوية من عواطف الهندوس ، وهي عواطف الحب والوفاء والعشق والغرام ، فأصبحا لذلك مهوى أفئدة العاشقين ومهوى أفئدة الأمهات المحبّات العطوفات .

ويعلّق غوستاف لوبون على هذا فيقول : « وما في ديانة فشنو من الغرام يأتي في الهند ذات الجو المحرق وذات السكّان الملتهبي المزاج بنتائج مخالفة للآداب الأوروبيّة[2] » . . . هكذا إلى هذا الحد ! ! مع ما نعلمه عن المجتمع الأوروبي وآدابه المنحلّة . . . ثم يقول : « وتجد في (كجرات) على الخصوص بعض المذاهب القائلة بعبادة (كرشنا) ، فيدعى كهانها بالمهاراجوات ، فمن أقصى آمال النساء أن يصبحن عاشقات لكرشنا أي لممثليه من أولئك الكهان ، الذين يبيعون قضاء الأوطار بأغلى الأسعار[3] » .

(١) ذكرت الصحف أن الحكومة الهندية اعتذرت عن تصدير القرود للخارج لما في ذلك من مصادرة لعقيدة الشعب .
(٢) حضارة الهند (١٤٤) .
(٣) حضارة الهند (٦١٠) .

هـ ــ لقد كانت فكرة الحلول عند الهندوس سبباً في سهولة اعتقادهم وعبادتهم لأي عظيم وأي قوي ، فكلّ قوي لا بدّ أن يكون قد حلّ فيه الأله ، وإلاّ لما صار قويا .

ومن هنا تعدّدت الآلهة وتعدّدت المذاهب ، وإن كانت كلّها داخل الهندوسية التي أوحت بمبادئها وأفكارها بايجاد وخلق مثل هذه المذاهب وهذه الاعتقادات ، فالهندوسي لا يرفض تقديس أيّ قَوِيّ ، ومن الممكن بكلّ سهولة أن يضيفه إلى قائمة القديسين في المعبد أو البيت ، فالبقر مقدّس لما يدرّه من خير على الحياة في الهند ، والأفعى مقدّسة لقدرتها على الضرر ، والنمر حين يذوق طعم لحم الانسان فيصبح مفترساً وخطراً على الانسان لا يحاولون قتله بل إنه ينقلب في أنفسهم إلى قديس يعبد لقوته وسطوته . والقطار لا مانع أن يُعبد لقوّته الخارقة في قطع المسافات وحمل المسافرين وأثقالهم ، وهكذا نجد صورة للبقرة وصورة للافعى في المعابد ، وتقدّم إلى هذه الصور مراسيم العبادة حين تهفو نفس الهندوسي للتبتل والعبادة .

والباب مفتوح يدخله كلّ بطل وكلّ قَوِيّ ، وطريقه إلى المعبد سهل ، لتصبح صورته مكان التقديس والاجلال ، لا عتقادهم أنّ روح الأله فشنو قد حلّت فيه وأتباع فشنو يكثرون في الشمال ، وهم يرسمون غالباً على جبهاتهم ثلاثة خطوط رأسيّة هكذا (|||) .

وأما الذين يضعون نقطة في وسط جبهتهم ، فهم أتباع كريشنا [1] .

و ــ وحجر الزاوية في الهندوسيّة وعمادها هو البراهمي ، وهو الكاهن الذي يستطيع بالعبادة والتوبة أن يصل إلى القوّة الخارقة ، وهو يحفظ الكثير من الكتب المقدسة ومن الشعائر الدينية عن ظهر قلب ، وهو وحده يستطيع أن يشرح النصوص المقدسة ويباشر الشعائر الدينية ، التي لا يجوز لغيره مباشرتها . وتنص قوانين (منو) على أنّ

(١) انظر التفاصيل في كتاب : تاريخ الاسلام في الهند (٢٦ – ٤٨) .

البراهمي خليفة الله في الأرض ، فيجب احترامه . ومهما ارتكب من جرائم لا يصح إعلامه ، ولكن يمكن نفيه . وإنّ أشنع جرم يرتكبه إنسان في هذه الدنيا هو قتل البراهمي ، ومَن يفعل ذلك يقتل وتذهب روحه إلى حيوان مفترس .

والبراهمي شخص مقرّب عند الآلهة ، وأحكامه تعتبر حجّة لا تنقض . وكلّ ما في هذا العالم ملك له ، وله حق في كل ما هو موجود . وإذا افتقر حقّ له أن يأخذ مال الشودرى (من طبقة الشودرا) من غير أن يحاسبه الملك على ذلك ، فالشودرى عبد للبراهمي . ولا ينبغي للملك أن يجني ضريبة من البراهمي الذي يحمل في صدره الكتب المقدسة ، ولا يجوز للحكّام أن يتركوا براهمياً يتضوّر جوعاً ، وإذا توفى شخص ولم يكن له ورثة شرعيون فانّ أمواله تذهب إلى البراهمة .

ز ـ أما عن الملوك والحكّام فانّ قوانين (منو) تأمر باحترامهم كأنهم آلهة في صور بشر ، وواجب الملوك صيانة القانون وحماية الضعيف ، وعليهم في أيام الحرب أن يقودوا الجيوش ويتقدموها . . وكما أنّ الأرض تصون جميع المخلوقات ، فعلى الملوك أن يصونوا رعاياهم ويحموا الضعيف والأرملة والمرأة العاقر وجميع مَن حلّت بهم المصائب .

أما عن الميراث ، فتنص قوانين (منو) على أن يقسم بين الأولاد الذكور بالتساوى ، وأما البنات فلا يرثون لأنهم يعيشون في كنف الأسرة .

وإذا توفى الرجل بلا وارث ، فانّ أمواله تعود إلى الملك وإلى البراهمة [1] .

٢ ـ الجينية

إحدى الديانات المنتشرة في الهند ، وإن كان أتباعها اليوم قليلين . وإذا كانت الشيفيّة والفشنوية مشتقتين من الديانة الهندوسيّة القديمة التي تقوم على الكتب المقدّسة

(١) انظر التفاصيل في كتاب : الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها (٣٤ – ٦٥) .

الهندوسية من الفيدا وغيره ، فانّ الجينيّة يعتبرها أتباعها ديانة مستقلّة كالبوذيّة لا تعترف بالفيدا .

ويدّعي الجينيون أنّ ديانتهم أقدم الديانات في الهند ، ولكنّ المؤرخين لا يعرفون الجينية حقيقة إلاّ منذ القرن السّادس قبل الميلاد ، ويعرفون مؤسسها أو منظّمها الأخير (مهاويرا)[1] الذين يؤرخون ميلاده بسنة (٥٩٩ ق . م) أي قبل ولادة (بوذا) التي كانت سنة (٥٥٧ ق . م) ، وتعاصرا في الحياة ثلاثين سنة ، ولكنهما لم يتقابلا ، مع أنهما كانا في منطقة واحدة تعرف الآن باسم : (بيهار) ، وقد مات (مهاويرا قبل (بوذا) بحوالي خمسين سنة ، ولكنّ بعض المؤرخين يعتبرون الجينيّة مشتقة من الهندوسيّة .

وقد قامت الجينيّة كما قامت البوذية في وقت ثارت فيه الطبقة المحاربة على البراهمة لاختصاصهم بجميع الامتيازات ، وكان (مهاويرا) من هذه الطبقة المحاربة ، فأسّس هذه الديانة التي تختلف عن البرهميّة الهندوسيّة ، لا سيما في القول بتقسيم الناس إلى طبقات ، وفي عدم الاعترا ف بآلهة الهندوسية الثلاثة : براهما ، وشيفا ، وفشنو ، وإن اعترفوا ببعض آلهة أخرى ولكن لم يعبدوها ، فانّ هذه الديانة تقوم على عدم الاعترا ف بالروح الأكبر أي الخالق ، وإن اعترفت بوجود أرواح خالدة . وهم يتّجهون في عبادتهم إلى أبطالهم الذي يعتبر (مهاويرا) آخرهم ، فهم يعبدون الانسان عوضاً عن الله ، ويتخذون الأصنام للعبادة في معابدهم .

وتخالف الجينيّة الهندوسيّة أيضاً ، في أنها لا تعترف بمسألة تعدّد الولادة التي يقول بها الهندوس نتيجة لفكرة التناسخ التي تقول : إنّ الانسان لا يزال يموت ويولد حتى تطهر نفسه تماماً فتصل إلى الخلود والنعيم .

أما الجينيّة فتقول : إنّ الانسان يستطيع أن يتحرّر من دورة الولادة هذه بتعطيل

---

(١) مهاويرا معناها : البطل العظيم ، وقد أطلق على أتباعه : الجينا ، ومعناها الأحرار ، أو الذين لا يتقيدون بشيء من أشياء المادة .

حياته ، وذلك بالتخلص عن كل عمل وكلّ ما يغذى جسمه ، حتى تنتهي حياته ، وكأنها ترغب بذلك في الانتحار ، حتى سمّيت بالانتحاريّة .

وأهم شيء في الجينيّة ، هو الدعوة إلى تجرّد الانسان من شرور الحياة وشهواتها ، حتى تدخل النفس في حالة من الجمود والخمود لا تشعر فيها بأي شيء مما حولها . والناسك الحق ، هو الذي يقهر جميع مشاعره وعواطفه وحوائجه ، فلا يحتاج إلى شيء حتى اللّباس ، لأنه لا يشعر بحرٍ ولا بردٍ ولاحياء . ويهتمّ الكهّان الجينيون بنتف أشعارهم كلّها كدليل على أنهم لا يهتمون بالجسد المادي ، لأنّ الذي يشعر بالحياة – وبالتالي بحاجته إلى ستر عورته ، وأنّ في الحياة خيراً وشراً وحسناً وقبحاً – معناه أنه لا يزال متعلقاً بها خاضعاً لمقاييسها .

ويقولون : إنّ آدم وحوّاء كانا يعيشان في الجنّة بطهر كامل ، لا يشعران بحياء ولا خير ولا شر ، ولا يحملان همّاً أو غمّاً ، حتى تسلّط عليهما الشيطان ليحرمهما من هذه اللّذة ، فحملهما على أن يأكلا من شجرة العلم بالخير والشر ، فأخرجا من الجنة ، وبهذه النظريّة يعيش نسّاكهم عراة لا يسترهم شيء مطلقاً ، لأن هذا هو المثل الأعلى عندهم ، إذ معناه أنّ الناسك تجرّد من كلّ إحساس بالدنيا وآراء الناس فيها ، فأصبح لا يهتمّ فيها بخير أو شر أو حسن أو قبح .

ويفلسفون هذا المعنى فيقولون : إنّ الشعور بالحياء يتضمن تصوّر الأثم ، فلو لم يكن الأثم في الحياة لما كان الحياء ، فترك اللّباس هو ترك للاثم وتصوّره ، وعلى ذلك يجب على كل ناسك يريد أن يحيا حياة بريئة من الاثم أن يعيش عادياً ويتّخذ من الهواء والسماء لباساً له .

وهكذا نرى السمات البارزة لهذا الدين هي : المساواة ، وعدم الاعتراف بآلِه ، مع الاعتراف بالروح ، والرغبة في الانتحار البطيء للوصول إلى سموّ الروح وتخلّصها من الآلام ، والرغبة في العري واعتباره مثلاً أعلى للناسكين ، حتى سمي هذا الدين : بدين العري .

وقد انقسم الجينيون إلى فرقتين : إحداهما تميل إلى التقشف التام وإنكار الذات متّخذةمن حياة (مهاويرا) المتقشّفة شعاراً لها ؛ أما ثانيتهما فمعتدلة في شؤون الحياة ، متّخذة من حياة (مهاويرا) الأولى في كنف والديه حين كان يتمتّع بالخدم والملذّات قدوة لها [1] .

وأهم مبدأ لهذا الدين هو (أحمسا) أي عدم القتل وعدم الايذاء ، والانسان يجب عليه ألاّ يمسّ بالأذى كائناً من كائنات الطبيعة من حيوان أو نبات .

أما عن تاريخ حياة (مهاويرا) ، فالمعروف عنه أنه من أسرة ملكيّة ، وأنّ عشيرته كانت تختلف في عقيدتها بعض الاختلاف عن الهندوسية . ولما بلغ الثلاثين من عمره هجر أسرته وتنازل عن الحكم لأخيه ، وقضى عدّة سنين في حياة الزهد متجولاً بين القبائل البدائية في غابات البنغال . وكان كثيراً ما يتدبّر أمر الآلهة والعقائد ، حتى وصل إلى عقيدة تختلف عن الهندوسيّة في أمور جوهريّة . ثم أخذ يتنقّل في البلاد ويعظ الناس ويحضهم على ترك اللّهو وعلى التفرّغ للحياة الروحيّة وترك اللّحوم وقتل النفس مهما تكن حيواناً أو إنساناً . وقد توفي وسِنّه اثنتان وسبعون سنة (٥٢٧ق.م) فانقسم الجينيّة بعد موته إلى قسمين : الذين يلتحفون السماء ، أصحاب مذهب العري ، والثاني ذوو الرداء الأبيض .

ومهاويرا كبوذا ، ، كلّ منهما ثار ضد استبداد البراهمة ، وكلّ منهما ترك اللغة السنسكريتية المقدّسة واتخذ لغة العامة التي يتكلم بها جمهور الشعب ، وقد أنكر كلّ منهما ما تحتوي عليه كتب الڤيدا من أساطير وخرافات ، كما رفضا نظام نظام الطبقات . وقد سلك الاثنان في إقامة دينيهما أساليب وطرقاً متشابهة، هي الزهد وحياة الدير .

ولم تنتشر الجينيّة بين جماهير الشعب الهندي انتشاراً واسعاً بسبب شدّتها ودقّة فرائضها ، ويبلغ أتباعها اليوم نحو مليون ونصف المليون . ، وهو عدد قليل بالنسبة

(١) انظر التفاصيل في كتاب : تاريخ الاسلام في الهند (٤٨ — ٥١) .

إلى سكان الهند، ولكن أهميتهم تفوق عددهم بكثير، فهم غالباً من الأثرياء وأصحاب المتاجر الواسعة، وهم لا ينفرون من الهندوس، بل يستعينون بالبراهمة الهندوس في أداء الشعائر الدينية في المنازل. والمكان المقدس عندهم جبل (أبو) في الطرف الجنوبي لجبال (أرفا لي) في إقليم (راجبوتانا)، وحوله توجد عدّة معابد لهم [1]

٣- البوذيــة

ولد (جوتاما بوذا) سنة (٥٦٣ ق . م)، وهو ابن لأحد رؤساء العشائر التي كانت تسكن قرب حدود النيبال إلى الشمال من بنارس بنحو مائة ميل، وقد وضع أحد ملوك الهند (آشوك) عموداً تذكارياً في البقعة التي ولد فيها بوذا. وفي سن مبكّر تزوّج بوذا بابنة عمه، ولما قارب الثلاثين من عمره قصّ شعر رأسه ولحيته، ولبس رداءً أصفر، وترك مسكنه معتزلاً العالم، دون أن يأبه لبكاء أسرته، وقد عبّر بوذا عن هذه الخطوة بأنها : التحرير العظيم. وبعد ذلك قضى مدة مع بعض النساء، ثم انقطع عنهنّ وقضى على نفسه بالتقشف والتعذيب، حتى أوشك على الموت، لولا أنّ إحدى القرويات عثرت به وقدّمت له كوباً من اللّبن. وبعد سنوات من تقشفه واعتزاله، أدرك أنّ عليه رسالة في هذه الدنيا يجب عليه أن يؤديها، وكان في ذلك الوقت يجلس تحت شجرة في مكان يقال له : (بوده جويا) جنوبي (بتنا) بقليل، اشتهرت هذه الشجرة بأنها : مهبط البوذية، وقد أقيم في مكانها معبد عظيم. وقد قال بوذا : إنّ شيطاناً جاءه وحاول أن يثنيه عن عزمه، ولكنه انتصر على الشيطان، وعند ذلك شعرت نفسه بسعادة عظيمة.

وانتقل بوذا بعد ذلك إلى مدينة بنارس، حيث دخل حديقة عامة يقال لها : حديقة الغزلان، فجاءه أناس كثيرون يسألونه أن يعظهم، فألقى عليهم أوّل موعظة له، وكان موضوعها : الوجود والأحزان والآلام التي يمرّ بها الانسان من يوم مولده

(١) انظر التفاصيل في كتاب : الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها (٦٥ - ٦٧).

إلى يوم موته ومولده الثاني . وقال : إنّ خلاص الأنسان لا يكون إلا باتباع الطريق المُثَمّن وهو طريق الفضائل : الفهم الحق ، والعزم الحق ، والكلام الحق ، والعمل الحق ، والتفكير الحق ، والمجهود الحق ، والتأمل الحق ، وأخيراً الحياة الحقة .

وكان الناس في ذلك الوقت يحسّون بالبؤس ، وقد فقدوا الأمل في حياة أفضل مما هم فيه ، وكان بوذا يبحث عن طريق لخلاص الناس من هذا الشقاء . وقد رأى بوذا أنّ طريق العلم والحكمة لا يتسنى إلاّ لطائفة مختارة من الناس ، أما عامة الناس فالطريق المناسبة لهم هي طريقة الحياة العمليّة . وكان بوذا كأهل زمانه يعتقد بعودة الروح ، وقد شبّه بوذا حياة الانسان باشعال شمعة من شمعة أخرى والضوء فيهما واحد، ولكنه مع ذلك ضوء جديد . وذكر الناس أنهم باتّباع الفضائل لا يبقى من ذنوب الانبسان شيءٌ ، وعند ذلك تنتهي الشمعة . ولم يذكر بوذا شيئاً عن الآلهة ، وكان يقول : كما تزرع تحصد ، ولن تنجيك القرابين والدعوات .

وقد حضّ بوذا الناس على الرأفة بجميع الكائنات وعلى صفاء القلوب وطهارة النفس ، وذلك بالصدق ونبذ الأطماع والآثام ، والبعد عن الحقد والغضب . وكان الناس عنده سواء ، لا فرق بين براهمي وغيره ، فانّ الجميع بحاجة إلى السير في طريق الخلاص والتقوى .

وقد شعر الناس حين استمعوا إليه في حديقة الغزلان ، أنهم يستمعون إلى أمور جديدة لا عهد لهم بها ، وقد كانت نفوسهم متعطّشة إليها بعد جفاف الهندوسيّة . لهذا هرع الناس إليه ، وأطلقوا عليه : الرجل المستنير (أي بوذا) .

وبعد ذلك لازمه رفيق اسمه : (أناندا) لم يفارقه في جميع رحلاته ، وكان لبوذا أحبار يبلغون الستين . وظلّ بوذا يتنقّل من قرية إلى أخرى ، وهو يضرب في قلعة الهندوسية العتيقة ، فالتف حوله أمراء وبراهمة وتجار وأصحاب الأرض ، وجاء إليه المنبوذون من كلّ فج ، واستمع إليه كثير من السيّدات .

وقد جعل بوذا لحياته نظاماً يتكرّر كلّ يوم : يستيقظ في الفجر ، ويرتدي الرداء الأصفر رمز التسوّل ، ويخرج مع قسم من أصحابه يتسوّلون من باب إلى باب ، لا يسألون الناس إلحافا . وبعد أن يعودوا يجلسون جميعاً إلى مائدة واحدة ، لا يعرفون طبقات أو طوائف ، ثم يقضون وقتاً في الصلاة والتأمل . وفي المساء يجتمع إليه الناس ، فيقف فيهم خطيباً بعبارات تصل إلى القلوب ، ثم يجلس مع الناس يحدّثهم في مشاكلهم اليوميّة وأمورهم الدينية ، وكانوا يأسفون عندما تهطل الأمطار التي تحرمهم الاستماع اليه ، فقد كان هو وأتباعه يعتزلون في بعض الأديرة مدّة الأمطار الموسميّة ، ومن أشهر هذه الأديرة دير يقع إلى الشمال الغربي من مدينة (بتنا) ، وقد انضمت إليه زوجته وأنشأت ديراً للراهبات البوذيات .

وقضى بوذا ستاً وأربعين سنة لا يكلّ ولا يتعب متنقلاً في أرجاء الهند الواسعة يقابل بالترحاب في بعض الأماكن ، ويقابل بالصد والمعارضة في أخرى .

ولم يدّع بوذا لنفسه أية قوّة خارقة أو أية صلة بالآلهة ، ولم يقم بمعجزات ، وكان يقول للناس : إنّ في أيديهم وحدهم خلاص أنفسهم ، وأقصى ما يستطيع أن يقدّمه لهم ، هو أن يرشدهم إلى الطريق المستقيم .

وقد عاش حياة مثالية إلى أن بلغ الثمانين ، فمات . ولموته قصة ، فقد بلغ قرية صغيرة تبعد مائة ميل إلى الشمال الشرقي من مدينة بنارس ، وهناك استقبله حدّاد فقير ، وقدّم له طعاماً من لحم الخنزير . وكان الطعام فاسداً ، ولكن بوذا رفض أن يجرح شعور الرجل ، فأكل من طعامه ونهى أتباعه عن مشاركته . ورقد بوذا في ظل شجرة وهو يحسّ بالألم الشديد ، فدعا إليه تلاميذه وحثّهم على السير في الطريق الذي رسمه لهم ، وكانت موعظته الأخيرة لهم : « ليكن كلّ منكم مصباحاً لنفسه ، وليكن كلّ منكم ملجأ تلجأ إليه نفسه . واعتصموا بالحق كما يعتصم الانسان بالمصباح في ليل بهيم . . . لا تنتظروا أن يأتيكم الخلاص من الآخرين » .

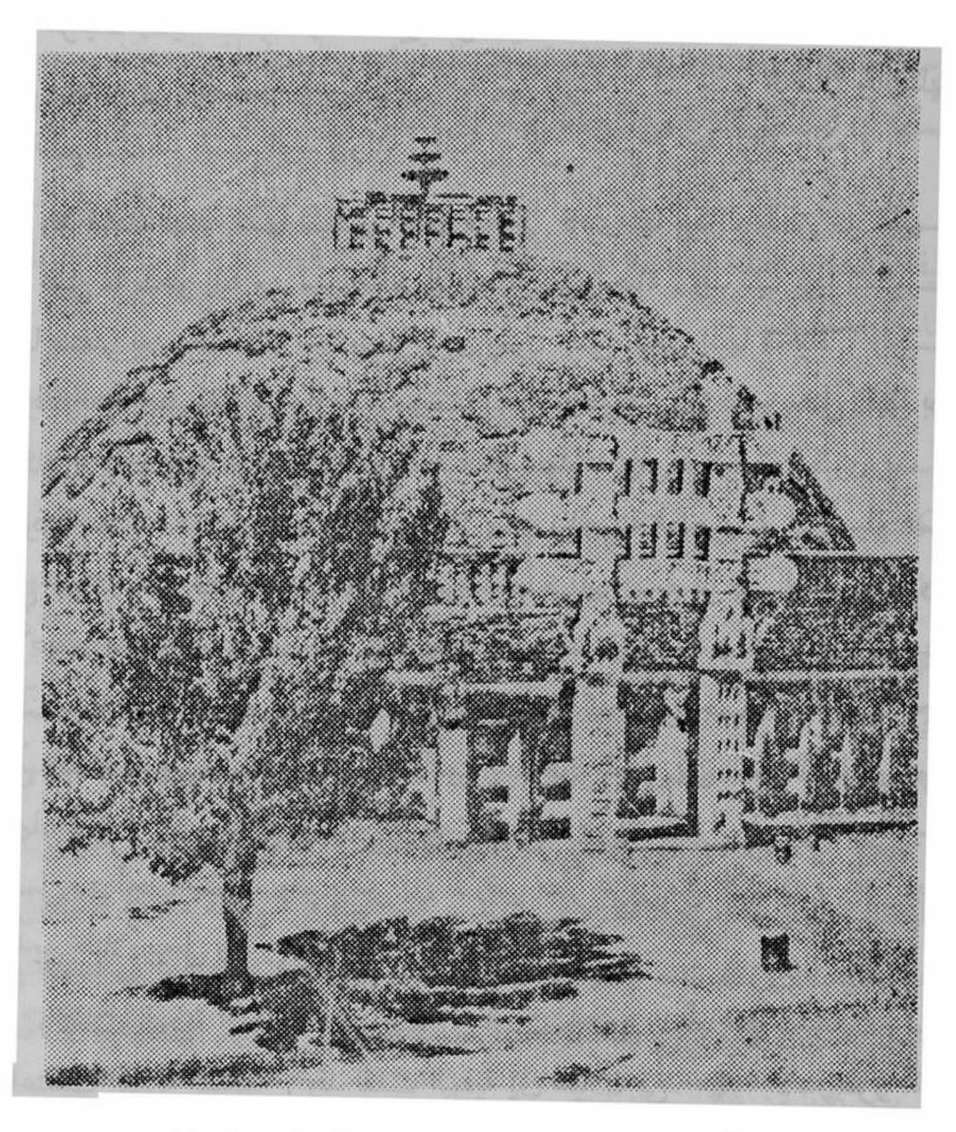
وغلب الحزن تلميذه أناندا ، وأخذ يبكي ، فدعاه بوذا إليه ونهاه عن البكاء ،

وقال له: « يكفى يا أناندا ! لا ترهق نفسك حزناً عليَّ ، ألم أقل لك مراراً : إنّ من طبيعة الأشياء جميعها أن يفترق بعضها عن بعض ، مهما بلغت محبتنا لها ومهما كان لها من رفعة الشأن ! يا أناندا ! كلّ ما يولد لا بدّ أن يموت » . . . ثم أرسل رسولاً إلى الحدّاد الفقير ، يخبره ألاّ يحزن وألاّ يلقي على نفسه اللّوم لما حدث ! ثم خاطب الحاضرين قائلاً : « إخواني ، استمعوا إليّ ! إني أنصح لكم أن تفهموا أنّ الفناء من طبيعة الأشياء . . . إعملوا لخلاص أنفسكم بقدر ما تملكون من قوّة » .

وتوفى بوذا في سنة (٤٨٣ ق . م) في إقليم (جورا خبور) شمالي (بتنا) وأحرقت جثّته حسب التقاليد ، ثم اقتسم أتباعه ما تبقّى ودفنوه في أضرحة في أجزاء مختلفة من الهند، وأقاموا على كل قبر ضريحاً يشبه القبّة يطلقون عليها : (استوبا) ، وهو طراز لم يعرف في الهند قبل عهد بوذا ، وقد اجتمع عدد من تلاميذه يبلغون الخمسمائة وجمعوا أحاديثه وخطبه وجميع آثاره ، وحفظوا كلّ ذلك ودوّنوه بلغة (بهار) القديمة التي تعرف بـ (البالى) .

وفي سنة (٣٧٦ ق . م) أي بعد وفاة بوذا بمائة سنة وأكثر ، اجتمع مجمع بوذي في موطن بوذا ، وقامت مناقشة حامية بشأن تخفيف الفرائض الدينية ، وأعادوا تفسير كثير من تعاليم بوذا . وفي عهد الامبراطور آشوك سنة (٢٤٠ ق . م) اجتمع مجمع في (بتنا) دوّن الكتب البوذية كلّها .

وخلاصة القول : إنّ بوذا كان مصلحاً قبل أن يكون كاهناً، وقد عمل على تخليص المجتمع من العقائد العتيقة الجامدة ، ولم يحتفل بالكتب المقدّسة ، ولم يدع الناس إلى عبادة الآلهة ، ونهى عن التفريق بين الطبقات ، وكان يقبل في الدير كلّ مَنْ يريد الزهد ولو كان من المنبوذين . وكان يقول : إنّ الناس كالنار لا فرق بين أن نشعلها بخشب الصندل أو بالحطب العادي . وكان يدعو الناس إلى ترك الشر قولاً وعملاً ، وأن يتحابوا ويعطف بعضهم على بعض ، وألاّ يكون للحقد سبيل إلى نفوسهم .



الستوبا العظيمة في سانشي «شمال نهر نربادا»

وكان بوذا يدعو إلى الرحمة ، ويحكى أنه كان يمرّ في حجرات الدير ذات ليلة كعادته ، فوجد راهباً مريضاً ، وقد اشتدّ عليه المرض ، حتى فقدَ وعيه ، ووجد أنّ الرهبان جميعاً قد ابتعدوا عنه خوفاً من نجاسته . عند ذلك دعا إليه صديقه أناندا لكي يعاونه في تنظيف الراهب وتغيير ملابسه وفرشه ، ثم جمع الرهبان وقال لهم « إنكم الآن قد فقدتم الولد والوالد ، فليكن كلّ منكم لأخيه الوالد والأم » .

وقد قبلت الهند كلّها المبادئ الأخلاقية التي نادى بها بوذا ، ولكن عزّ عليها أن تقبل ما يدعو إليه من نبذ العالم والانقطاع عن الحياة . وقد تنبّأ بوذا لتعاليمه أنها ستفتر بعد خمسمائة سنة وتحتاج إلى رسول جديد ليعيد إليها الحياة ، ولكن البوذية بعد خمسمائة سنة ازدهرت وآتت ثمارها وتطوّرت إلى دين يحتلّ فيها بوذا مكان الآله ، وأصبح اسم البوذيّة الجديدة (المهايانا) أي (الوسيلة الكبرى) ، أما البوذيّة القديمة فيطلق عليها : (الهينايانا) أي (الوسيلة الصغرى) ، والوسيلة هنا هي المركبة التي تنقل المؤمنين في طريق العقيدة إلى أن يصلوا إلى الاتحاد بالروح الأعلى (نيرفانا) . وأسمى المراتب في البوذية الجديدة ليست (النيرفانا) كما في الهندوسيّة ، وإنما العودة إلى الأرض للعمل على تخليص جميع الكائنات الحيّة من الشقاء ، وهو ما يفعله القديسون الذين يتطوّعون للعمل بين البشر للعمل بينهم ، ولهذا قالوا : إنّ بوذا لم يمت كما يموت غيره ، بل إنه لا يزال في الآفاق العليا يعمل من أجل البشر ، وهو يرسل إلى الأرض مطراً غزيراً من الايمان ، وهو يجعل الدين طبلاً يرسل رعداً يملأ أرجاء الأرض .

وانتقلت البوذية الجديدة من الهند إلى التبت والصين ، أما سيام وسيلان وبورما فاعتنقت البوذية القديمة . وقد نقلت البوذية إلى سيلان في عهد الامبراطور آشوك (٢٧١ – ٢٣١ ق . م) إذ أرسل ابنه (ماهندرا) وابنته (سنجامترا) إلى جزيرة سيلان ، ومعهما فرع من الشجرة التي كان بوذا يجلس تحتها في أول عهده بالدعوة وقد أرسل الملك المذكور رسلاً إلى وسط آسيا والصين .

أما الهند ، فانّ البوذيّة أخذت تضمحل فيها بعد سنة (٨٠٠ م) ، وتم زوالها نهائياً حوالي سنة (١٥٠٠م) ، لأنّ الهنود أدركوا أنّ الهندوسيّة من الناحية الروحيّة أرسخ جذوراً في تقاليد الهند ، فقد قصّرت البوذيّة عن الوصول إلى الوجدان ، وجعلت همّها أن تخلّص الفرد من عودة الروح إلى الدنيا .

لقد كانت البوذيّة أسمى من الهندوسيّة في المبادئ الخلقيّة ، ولكنها لم تكن وثيقة الصلة بالعقيدة الهنديّة الأصليّة ، ولهذا كانت الهندوسيّة أقرب إلى عواطف الناس ومشاعرهم .

وكان أعظم حادث في القرن السّابع الميلادي ، أن قام رجل من حكماء الهندوس اسمه (شانكار) أخذ على عاتقه القضاء على البوذيّة وإرجاع الهندوسيّة إلى مكانتها . وأخذ يجوب البلاد ويقول للناس : إنّ ما في البوذية من فضائل قد انتقل كلّه إلى الهندوسية ، ولكن يجب ألاّ يكون في الهند إلاّ دين واحد ، والهندوسية التي كانت في جميع العصور كالاسفنجة تقبل كلّ صالح من المعتقدات والآراء ، هي الأحق بالبقاء . وقد استجابت الهند لدعوته ، وقامت مراكز لذلك في أركان الهند ، وسرعان ما انقرضت البوذيّة من الهند وتحوّلت معابدها إلى معابد هندوسيّة .

ولكنّ الأسلام هو الذي قضى على البوذيّة القضاء الأخير ، فقد بقي البوذيون في إقليم البنغال إلى مجيء الاسلام في الهند ، فلم تستطع البوذيّة مقاومة المسلمين ، وهرب الرهبان إلى التبت ، وتحولت البنغال نصفها إلى الاسلام ونصفها إلى الهندوسيّة.

وقد خلّفت البوذية وراءها آثاراً طيبة غيّرت كثيراً من تعاليم الهندوسيّة ، كما غيّرت كثيراً من عادات الهندوس .

وقد أخذ الهندوس عن البوذيّة مبدأ ترك اللحوم ، والامتناع عن قتل الحيوان أو إيذائه . ومن التعاليم البوذية التي أخذ بها المجتمع الهندوسي مبدأ الخدمة العامة ، وأصبح ذلك تقليداً بين الطبقات العالية إذ يتطوّع الكثير منهم لخدمة الطبقات الأخرى

ولكنّ البوذيّة عجزت عن القضاء على نظام الطبقات ، وكلّ ما فعله البوذيون أنهم رفعوا من شأن أصحاب الحرف الذين كانوا من (الشودرا) ، فأخذ الهنود ينظرون باحترام نحو أولئك الذين يؤدون عملهم في حرفتهم باخلاص ، ومن الحكم البوذيّة : « لا يكون المرء منبوذاً لأن أبويه منبوذان ، ولا يكون براهمياً لأن أبويه من البراهمة ، بل ان عمل المرء هو الذي يجعله منبوذاً او براهمياً »

وقد اكتسبت الهندوسيّة بعد خروج البوذيّة نهضة جديدة ، وعادت إلى الشعب أخبار الأبطال السابقين . كما تخلّصت الهندوسيّة من كثير من الجمود والقسوة والفساد ، ولكنها لم تستطع أن تلغي نظام الطبقات .

وبعد خروج البوذيّة من الهند ، تحوّلت الهندوسيّة من عبادة عدد كبير من الآلهة إلى الايمان بروح عالمية واحدة ، وما الكون والمخلوقات إلاّ صور من صورتها ، وما الآلهة العديدة إلاّ رموز للقوى الطبيعية ومظاهر لقدرة الآله الأعظم ، وما روح الفرد إلاّ شعاع من الروح العالميّة ومآلها إليها ، والذي يفصلها عنها القيود التي تربط الروح بالعالم المادي . ومهمة الروح في هذا العالم أن تبحث عن الطريق المستقيم الذي تتخلّص به من تلك القيود .

والمبدأ الأساسي عند الهندوس ، هو أنّ المادة غطاء زائف ، وأنها شر يجب التخلّص منه [1] ، وغاية ما تصبو إليه الهندوس أن يقضي حياته باحثاً عن الحقائق الروحانية ، وهو يسأل كما في الفيدا : « مَن هو الآله الذي نقدّم إليه قرباننا ! ومَن هو الذي خلق الكون ! ومَن في ظلّه الخلود وفي ظلّه الفناء ! » [2] .

فتح الهند

كان العرب وحدهم قبل الاسلام ، واسطة مقايضات التجارة الهندية ، ما ورد منه (براً) عن طريق بلاد فارس ، فتولاّه المناذرة والغساسنة ليبلغوا به موانئ الشام ،

(١) ملامح الهند والباكستان (١٤٢ - ١٤٦) .
(٢) انظر التفاصيل في كتاب : الهند تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها (٦٧ - ٧٦) .

أو (بحراً) عن طريق المحيط الهندي والبحر الأحمر ، فحمله اليمنيون من أبناء سبأ القديمة ، فمنه ما كان من نصيب القرشيين في رحلة الشتاء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، ليسيروا بدورهم بأكثره في رحلة الصيف إلى بلاد الشّام ، ومنه ما كان من نصيب تجار مصر ليقايضوا عليه تجار الرومان والاغريق بموانئهم على ربح طائل وفير .

لقد كان العرب قديماً على معرفة غير قليلة بالهند واحوالها عن طريق تجّارهم الذين نزلوا بهذه البلاد في غربها ، فاختلطوا بأهلها ولقوا في الغالب حفاوة وعناية من حكّامها ، ليعودوا إلى بلادهم في كلّ مرة ، فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل وما لهم من غرائب العادات والمعتقدات ، ويبهروا أنظارهم ، بما يعرضونه عليهم من لآلئ الهند ونفيس معادنها ومنسوجاتها وعطورها وثمارها ثم سيوفها التي اشتهرت بها .

كذلك وقف العرب القدماء على جانب من حضارة الهند وأخبارها وما فيها من علوم وآداب وفنون عن طريق المدارس العلميّة في أرض الرافدين مهد الحضارات القديمة ومجمعها ، التي كانت على اتصال وثيق بالهند ترد إليها ويفد إليها علماؤها وقد تخرّج على أيدي الهنود بمدرسة (جُنْدَيْسَابور) الساسانية الحارث بن كَلَدَة الثّقفيّ طبيب العرب قبل الاسلام ، الذي قام على علاج الناس بفارس ، وطببّ بعض سراتها ، فأعطاه مالاً وجارية هي سُمَيّة أم زياد بن أبي سفيان [1] .

وحين ظهر الاسلام ، ودخل العرب في دين الله أفواجاً ، كان منهم هؤلاء التجار والبحارة العرب من الحضارمة وأهل (عُمان) والبحرين وغيرهم ، فحملوا معهم دينهم الجديد إلى البلاد التي كانوا يتعاملون معها . وكان من الطبيعي أن يتحدّث هؤلاء العرب المسلمون في حماسة وإيمان عن دينهم الجديد ، وعن الرسول الذي ظهر في بلادهم يدعو الناس إلى التوحيد والاخاء والمساواة والعدل والمعاملة الحسنة

(١) ضحى الاسلام (٢٦٦/١) وانظر كتاب : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتها (٥٤/١ - ٥٥) .

بين الناس جميعاً وإلى المُثل العليا . وكانت الهند تئن حينئذٍ من التفرقة ونظام الطبقات القاسي الذي تقوم عليه دياناتهم ، فكان حديث التوحيد والمساواة نغمة جديدة يحلو لهم أن يسمعوها ، وأن يقارنوا بينها وبين ما هم فيه ، فوجد الاسلام في الهند أرضاً خصبة سهلة ، وأصبح في كل ميناء أو مدينة اتـّصل بها المسلمون جماعة صغيرة أو كبيرة اعتنقوا الاسلام ، وأقاموا المساجد ، وباشروا شعائرهم في حريـّة تامة ، لما كان للعرب في ذلك الوقت من منزلة عند الحكـّام ، باعتبارهم أكبر العوامل في رواج التجارة الهندية التي كانت تدرّ على هؤلاء الدخل الوفير .

وكانت سواحل السِّند ومليبار الواقعة على بحر العرب من أسعد بلاد الهند بالدين الجديد ، كما انتشر الاسلام في جزيرة (سيلان) أو جزيرة (الياقوت) كما يسميها المؤرخون القدامى .

وقد بدأ التفكير بفتح الهند في عهد عمر بن الخطـّاب رضي الله عنه، فقـــد ولى عثمان ابن ابي العاص الثـّقفي [١] (البحرين) و (عـُمان) سنة خمس عشرة الهجرية (٦٣٦ م) ، فوجـّه أخاه الحكم ابن أبي العاص الثـّقفي [٢] إلى (البحرين) ومضى إلى (عـُمان) وسيـّر جيشاً إلى (تانة) [٣] ، فلما رجع الجيش كتب إلى عمر ابن الخطـّاب يعلمه ذلك ، فكتب إليه عمر : « يا أخا ثقيف ! حملتَ دوداً على عود ، وإني أحلف بالله لو أصيبوا لأخذت من قومك» . ووجـّه الحكم ابن أبي العاص أيضاً إلى (بـَرْوَص) [٤] ، ووجـّه أخاه المغيرة ابن أبي العاص الثقفي [٥] إلـــى

(١) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٦٢ – ٢٦٩) .
(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٧٠ – ٢٧٢) .
(٣) تانة : مدينة تقع شمالى مدينة بومباى على بعد خمسة عشر ميلا منها ، وهي على بحر العرب ، ولا تزال فيها بعض المقابر الاسلامية ، انظر : تاريخ الاسلام في الهند (٧٩) – الفقرة (١) .
(٤) بروص Broach : مدينة تقع شمالى مدينة (سورت) بينها وبين نهر(نريدا) ، وكانت ميناء قديماً ولكنه فقد أهميته بمرور الزمن ، انظر : تاريخ الاسلام في الهند (٧٩) – الفقرة (٢). وسماها ياقوت الحموي في معجم البلدان (٢/١٥٥) : بروج ، ويقال : بروص ، وهي تسمى اليوم : بروص .
(٥) المغيرة ابن أبى العاص : هو أخو عثمان والحكم ابن أبى العاص ، انظر جمهرة أنساب العرب (٢٦٦) .

(خَوْرُ الدَّيْبُل) [1] ، فلقي العدو وظفر به [2] .

لقد كان عثمان ابن أبي العاص أول مَنْ حاول فتح السند من قادة المسلمين ، ثم لم تزل السند تغزى إلى زمان زياد بن أبي سفيان وإلى زمان الحجّاج بن يوسف الثقفي الذي افتتح باقي السند [3] .

لقد غزا عثمان ثلاثة من بلاد الهند [4] ، ومن الواضح أنّ الجيش الذي وجّهه إلى (تانة) والحملة التي وجّهها بقيادة أخيه الحكم إلى (بَرْوَص) والحملة التي وجّهها بقيادة أخيه المغيرة إلى (الدَّيْبُل) ، كانت غارات بقوات خفيفة محمولة بحراً على السفن هدفها الاستطلاع تمهيداً للفتح ولم يكن هدفها الفتح ، لان عثمان لا يمكن أن يُقدم على الفتح بدون موافقة عمر بن الخطّاب ، كما لا يمكن بهذه القوّات الخفيفة السريعة أن يقوم بالفتح ، ويبدو أنّ هذه الحملات أرسلت بأوقات متقاربة قبل أن يصدر عمر أوامره بإيقاف هذه المحاولات .

وقد كان عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، يخشى على المسلمين من ركوب البحر لما في ركوبه من مجازفة ، وقد منع معاوية ابن ابي سفيان واليه على الشّام من ركوب البحر الأبيض المتوسط لفتح (قبرس) كما هو معروف .

وأضيف سبباً آخر لامتناع عمر عن ركوب البحر ، هو أنّ الفتح الاسلامي

(١) خور الديبل : الخور : مصب الماء في البحر ، والمنخفض من الأرض بين مرتفعين ، والخليج ويريد هنا : خليج الديبل .
والديبل : مدينة على شط ماء السند وهي على ساحل البحر ، بلد صغير شديد الحر ، وهي ميناء على البحر تقع شرقي مدينة مهران ، بينها وبين المنصورة ست مراحل ، وبينها وبين بيرون أربع مراحل ، أنظر تقويم البلدان (٣٤٩) والمسالك والممالك للاصطخري (١٠٤) وآثار البلاد وأخبار العباد (٩٥) ، وكان موقعها قريباً من كراجي وقد اندرست الآن ، انظر تاريخ الاسلام في الهند (٧٤) .
(٢) البلاذري (٦٠٧) .
(٣) جمل فتوح الاسلام – ملحق بجوامع السيرة لابن حزم الأندلسي (٣٤٧) .
(٤) جمهرة أنساب العرب (٢٦٦) .

توسّع في أيامه توسعاً عظيماً ، فكان هذا التوسّع بالمقارنة بقوات المسلمين التي حملت أعباء الفتح يعتبر مجازفة كبيرة ، لأنّ قوات المسلمين كانت قليلة جداً بالنسبة للبلاد المفتوحة ، فكان عمر يحرص ألاّ يزج بقوات المسلمين في فتح جديد ويحرص على كبح جماح الفاتحين في البر ، فمن الأولى أن يحرص على كبح جماح الفاتحين في البحر – وبخاصة وأنّ المسلمين حينذاك لم يكونوا على استعداد مضمون لخوض غمار الحروب البحرية ، إذ لم يكن للدولة أسطول بحري ، وكان الذين يركبون البحر يعتمدون سفن البحّارة ، وليس في ذلك ضمان لسلامة الفاتحين ولا لسلامة الفتح والمحافظة عليه .

ولما ولي عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وولى عبدالله بن عامر بن كُرَيْز [1] العراق ، كتب إليه يأمره أن يوجّه إلى ثغر الهند مَن يعلم علمه ويتصرف إليه بخبره ، فوجّه حكيم بن جَبَلَة العَبْدي [2] ، فلما رجع أوفده إلى عثمان ، فسأله عن حال البلاد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! قد عرفتها وتنحّرْتُها » ، قال : « فصِفها لي » ، قال : « ماؤها وشَلٌ ، وثمرها دَقَل [3] ، ولصّها بَطَل ، إن قلّ الجيش فيها ضاعوا ، وإن كثروا جاعوا » ، فقال له عثمان : « أخابر أو ساجع ؟ ! » ، فقال « بل خابر » ، فلم يُغزِها أحدا [4] .

ويبدو أنّ حكيم بن جبلة نزل أحد الموانئ البحرية التي تعتمد في حياتها على التجارة لا على الزراعة ، فعمّم بتقريره ولم يخصِّص ، وكان الأولى به أن يرتاد مناطق واسعة من الهند ، ليؤدي واجبه كما ينبغي أولاً ، ويكون تقريره عن مهمته متكاملاً وسليماً .

ولما كان آخر سنة ثمان وثلاثين الهجرية (٦٥٨م) وأول سنة تسع وثلاثين الهجريّة

(١) انظر سيرته المفصلة في هذا الكتاب .
(٢) انظر سيرته في أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/٣٩ – ٤٠) .
(٣) الوشل : القليل . والدقل : أردأ التمر .
(٤) البلاذري (٦٠٧) .

(٦٥٩ م) في خلافة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، توجّه إلى الهند الحارث ابن مرّة العبديّ متطوعاً باذن عليّ ، فظفر وأصاب مغنماً وسبياً ، وقسّم في يوم واحد ألف رأس ، ثم إنه قتل ومَنْ معه بأرض (القيـقـان) [1] . إلاّ قليلا، وكان مقتله سنة اثنتين وأربعين الهجريّة [2] (٦٦٢ م)

وهذه حملة استطلاعيّة أخرى ، مؤلّفة من قوة سريعة مكتفية بذاتها بقيادة الحارث ومَنْ شايعه من رجال قبيلته ، انتصرت في أول أمرها لا عتمادها على المباغتة ، ولكنها لم تستطع أن تديم انتصارها ، لقلّة أفرادها ، ولبعدها عن قواعدها ، ولعدم إدامتها بالعَدَد والعُدَد من الدولة ، فكانت نتيجتها الابادة بعد أن تكاثر عليها أعداؤها ، فاقتلعوا جذورها الواهية من بلادهم .

وفي أيام معاوية ابن أبي سفيان سنة أربع وأربعين الهجرية (٦٦٤ م)غزا المُهلّب ابن أبي صُفْرَة الهند ، وكان على البصرة عبدالله بن عامِر ، فأتى المهلّب (بنّة)[3] و (لاهور) [4] ، وهما بين (المُلْتان)[5] و (كابُل) ، فلقيه العدو ، فكبده المهلّب خسائر فادحة ، فقال بعض الأزديين :

ألم تـرَ أنّ الأزْد ليلـة بيّتـوا ... بِبَنّة كانوا خير جيش المهلّب [6]

وقد سلك المهلّب في هذه الحملة الطريق الرئيس الذي يربط أفغانستان بالهند عبر مضيق (خيبَر) ، وهو الطريق الذي سلكه الاسكندر المقدوني في غزو الهند كما ذكرنا سابقاً ، وهو الشريان الرئيس الذي يربط أفغانستان وإيران بالهند .

(١) القيقان : من بلاد السند مما يلي خراسان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٨/٧) والبلاذري (٦٠٨) .
(٢) البلاذري (٦٠٧ – ٦٠٨) .
(٣) بنة : مدينة بكابل ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٤/٢١) .
(٤) لاهور : ولاية من ولايات الهند جنوبي كشمير وعلى طريق القوافل بين الهند وأفغانستان ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢١٢/٢) .
(٥) الملتان : مدينة بنواحي الهند قرب غزنة ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (١٤٦/٨) .
(٦) البلاذري (٦٠٨) ومعجم البلدان (٢٩٤/٢) .

وقد لقي المهلّب ابن أبي صفرة ببلاد (القيقان) ثمانية عشر فارساً من الترك على خيل محذوفة ، فقتلوه ، فقُتلوا جميعاً . فقال المهلّب : « ما جعل هؤلاء الأعاجم أولى بالتشمير منا ! ! » ، فحذف الخيل ، فكان أول مَنْ حذفها من المسلمين [1] .

لقد مهّد المهلّب لأول مرة لفتح الهند ، ويمكن اعتبار هذه الحملة أول حملة كبيرة نسبياً سلكت الطريق البرى ، في محاولة جديّة لفتح الهند ، ولكنها لم تنجح النجاح المطلوب في ضمّ جزء من الهند إلى بلاد المسلمين وترسيخ أقدامهم فيها ، ولكنها نجحت في مهمتها الاستطلاعيّة ، والوقت الذي يقضى من أجل الاستطلاع لا يذهب سدى »

ثمّ ولّى عبدالله بن عامر في زمن معاوية ابن أبي سفيان عبدالله بن سوّار العبدي ، ويقال : ولاه معاوية من قِبَلِه ثغر الهند ، فغزا (القيْقَان) فأصاب مغنما ، ثم وفد إلى معاوية وأهدى له خيلاً قِيقَانيّة وأقام عنده ، ثم رجع إلى (القيْقَان) ، فاستجاشوا الترك ، فقتلوه ، وفيه يقول الشاعر :

وابن سوّار على عِدّاتــه مُوْقِد النار وقتّال السّغَب

وكان سخياً ، لم يوقد أحد ناراً غير ناره في عسكره [2] ، وهذا دلالة على كرمه وسخائه ، فقد تكفل باقراء الضيوف وإيوائهم نيابة عن رجال معسكره .

وقد عدل عبدالله بن سوّار عن الاهتمام بالمناطق الشمالية من الهند لوعورتها ، خلافاً لما فعله المهلّب ابن أبي صُفرة من قبله ، فسلك ابن سوّار الطريق الساحليّ وتخلى عن المناطق الشمالية .

وحملة ابن سوّار غارة من الغارات الاستطلاعية أيضاً ، وقد خسر حياته لا ندفاعه عمقاً وقلّة قواته وبعده عن قواعده .

(١) البلاذري (٦٠٨) .
(٢) فتوح البلدان (٦٠٨) .

ووّلى زياد ابن ابى سفيان الذي كان على العراق لمعاوية ابن أبي سفيان ، سِنَان ابن سَلَمَة بن المُحَبِّق الهُذَلِيّ ثغر الهند ، وكان سنان فاضلاً متألِّهاً ، وهو أول مَن أحلف الجند بالطلاق ، فأتى الثغر ، ففتح (مُكْران) عنوة ومصّرها وأقام بها وضبط البلاد [١] .

ومن المعروف أنّ الذي فتح (مُكْران) في عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، هو الحكم بن عُمَيْر التغلبي [٢] ، والظاهر أنّ (مكران) انتقضت ، فأعاد فتحها سنان .

والمعروف أنّ (مكران) تتاخم الهند ، فهي ولاية واسعة بين (كِرْمَان)في غربها و (سِجِسْتَان) في شمالها ، والبحر في جنوبها ، والهند فيشرقها [٣] .

وكما كانت (عُمان) و (البحرين) قواعد انطلاق الحملات البحريّة لغزو الهند ، كانت (مُكران) قاعدة انطلاق الحملات البريّة لغزو الهند بالنسبة للطريق السّاحليّ ، وكانت (مُكْران) و (كابُل) قاعدة انطلاق الحملات البرية أيضاً لغزو الهند التي تسلك عبر مضيق (خيبر) وتؤدي الى شمالي الهند .

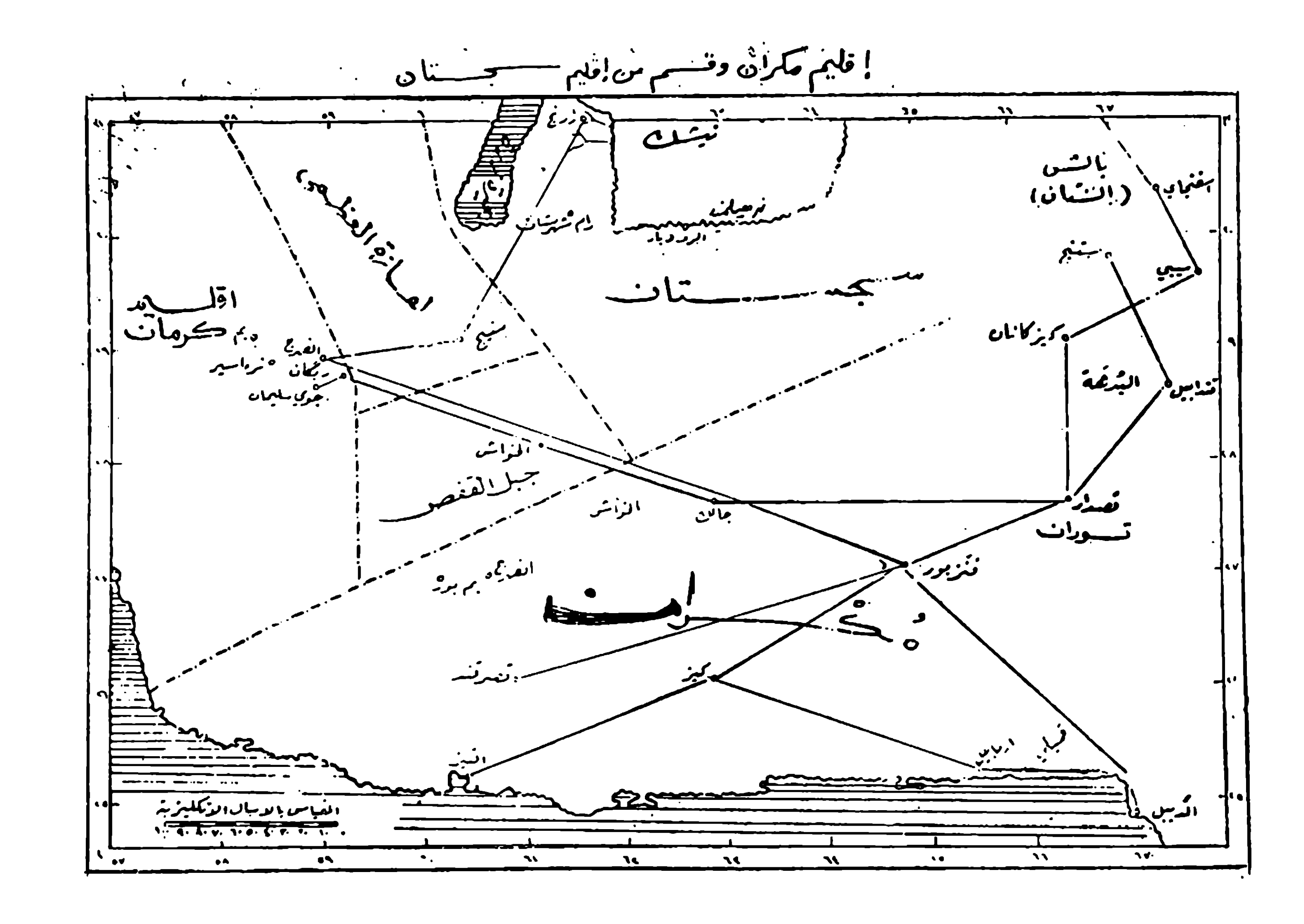
لذلك كان لمُكران أهمية بالغة بالنسبة للحملات البرية التي تسلك الطريق البرى الساحلي ، فالسيطرة على (مُكران) ضروري للغاية لتحقيق هدف الهند .

واستعمل زياد ابن أبي سفيان على ثغر الهند راشد بن عمرو الجُدَيْديّ من الأزد ، فأتى (مُكران) ، ثم غزا (القِيْقَان) فظفر ، ولكنه قتل في غزوة أخرى [٤]

وقام بأمر الناس بعد مقتل راشد في حملته ، سِنان بن سَلَمَة ، فولاه زياد ثغر الهند ، فأقام به سنتين [٥] .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري (٦٠٨ - ٦٠٩) .
(٢) انظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح بلاد فارس (٢٩٣ - ٢٩٧) .
(٣) انظر التفاصيل المسالك والممالك (١٠٢ و ١٠٥) ومعجم البلدان (٨/١٣٠) وآثار البلاد وأخبار العباد (٢٧٣) .
(٤) فتوح البلدان (٦٠٩) .
(٥) فتوح البلدان (٦٠٩) .



إقليم مكران وقسم من إقليم سجستان
نيشك
سجستان
اقليم كرمان
بم
الفهرج
ريكان
نرماسير
جوي سليمان
زرنج
كيزكانان
قصدار
توران
قنزبور
جالق
جبل القفص
الخواش
مكران
كيز
التيز
ارمابيل
قنبلي
الديبل
المقياس بالاميال الانكليزية

والظاهر أنّ سنان بن سلمة كان محدود النشاط في عمليات الغزو ، فاكتفى بالدفاع ورضي من الغنيمة بالسّلامة ، وهذا يدلّ على أن مقاومة الهنود اشتدت وطأتها وانتظمت ، ، فأصبح المسلمون يحسبون لها ألف حساب .

وولّى زياد عبّاد بن زياد ثغر الهند ، فانطلق من (سِجِسْتَان) ، فأتى (سَنَارُوذ)[1] ثم أخذ على بئر (كُهَز)[2] إلى (الرُوذ بَـار)[3] من أرض (سِجِسْتَان) إلى (الهِنْدَ مَنْد)[4] فنزل (كِشْ)[5] ، وقطع المفازة حتى أتى (القُنْدَهار)[6] فقاتل أهلها وهزمهم وفتحها بعد أن أُصيب رجال من المسلمين[7] .

ويبدو أنّ إعداد هذه الحملة كان أفضل من الحملات السابقة ، ومع ذلك كان نجاحها محدوداً وموقتاً ، فكان انتصار المسلمين في هذه الحملة انتصاراً تعبوياً .

وولي زياد ثغر الهند المنذر بن الجارود العَبْدِيّ ، ويكنى : أبا الأشعث ، فغزا (البوقان)[8] و (القِيقَان) ، فظفر المسلمون وغنموا ، وبثّ السرايا في بلادهم ، وفتح (قُصْدار)[9] ، وكان سِنان قد فتحها إلاّ أنّ أهلها انتقضوا ، وبها مات المنذر ، فقال الشاعر :

---

(١) سناروذ : اسم نهر سجستان ، وروذ بالفارسية اسم نهر ، يأخذ من نهر (هندمند) ، فيجري على فرسخ من سجستان ، وهو النهر الذي تجري فيه السفن من (بست) إلى سجستان ، ويتشعب منه أنهر كثيرة ، أنظر معجم البلدان (٥/١٤٠) .

(٢) كهز : في معجم البلدان (٧/٣٠٤) : كهك ، وهو الأصح : مدينة بسجستان ، وربما سموها : بئر كهك ، وهي من أعمال (الرخ) قرب (بست) .

(٣) الروذ بار : عدة مواضع ، معناها بالفارسية : موضع النهر ، أنظر معجم البلدان (٤/٢٩٨) . والظاهر أنها موضع في سجستان ، بين (كهك) ونهر (الهند مند) .

(٤) الهند مند : اسم لنهر مدينة سجستان ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٨/٤٨٢ – ٤٨٣) .

(٥) زكش : مدينة تقارب سمرقند ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٥١) .

(٦) القندهار : مدينة من بلاد الهند ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٦٧) . وهي اليوم في افغانستان

(٧) فتوح البلدان (٦١٠) ومعجم البلدان (٧/١٦٧) .

(٨) البوقان : مدينة بالسند ، أنظر معجم البلدان (٢/٣٠٧) .

(٩) قصدار : قصبة من نواحي السند ، أنظر معجم البلدان (٧/٩٥) .

حلّ بِقُصْدار فأضحى بها ... في القَبْر لم يَغْفَل مع الغافلين
لله قُصْدار وأعنابُها ... أيّ فتَى دُنْيا أَجَنّتْ ودِيْن[1]

ثم ولى عُبَيْدُ الله بن زياد ابن أبي سفيان الذي تولى العراق بعد أبيه زياد ابن أبي سفيان ، ثغر الهند حَرِيّ بن حَرِيّ الباهليّ ، ففتح الله على يديه تلك البلاد ، وقاتل بها قتالاً شديداً ، فظفر وغنم . وقيل : إنّ عبيدالله بن زياد ولي سِنان بن سلمة ، وكان حَرِيّ على سراياه ، وفي حَرِيّ بن حَرِيّ يقول الشاعر :

لولا طعانيّ بالبُوقان ما رجَعَتْ ... منه سرايا ابن حَرِيٍّ بأسْلاب[2]

ومن الواضح أنّ ميدان قتال حَرِيّ بن حَرِيّ كان (البُوقان) و (القِيقان) ، وهو ميدان سلفه المنذر بن الجارود العبديّ ، ولعلّ تلك المناطق انتقضت فأعاد فتحها ورسّخ أقدام المسلمين في أرجائها .

ولما ولي الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ العراق ، ولّى سعيد بن أَسْلَم بن زُرْعة الكلابيّ (مُكْران) وثغر السند ، فخرج عليه محمد ومعاوية ابنا الحارث العِلافيّان ، على الثغر ، واسم عِلاف هو : رَيّان بن حُلْوان بن عِمْران بن الحاف بن قُضاعة ، وهو أبو جرْم.[3]

وولّى الحجّاج مُجّاعة بن سِعْر التّميمي ثغر الهند ، فغزا مُجاعة ، فغنم وفتح مناطق من (قَنْدَابيل)[4] ، ولكنه مات بعد سنة بمُكْران . قال الشاعر

(١) فتوح البلدان (٦١٠) .
(٢) فتوح البلدان (٦١٠ - ٦١١) .
(٣) كان محمد ومعاوية من الخارجين على سلطان الأمويين في ثغر الهند ، وكانا قد لقيا عند داهر البرهمي ملك السند كل ترحيب حين لجأ إليه برجالهما الخمسمائة ، وما لبثا حين نصراه في بعض حروبه ، أن صارا من أصحاب الحظوة عنده ، انظر : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية (١/٥٧) .
(٤) قندابيل : مدينة بالسند ، وهي قصبة لولاية يقال لها : الندهة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٦٧) .

ما من مشاهدِكَ التي شَاهَدْتَها إلا يزينُكَ ذِكْرُها مُجَاعا

ثمّ استعمل الحجّاج بعد مُجّاعة ، محمد بن هارون بن ذِراع النمريّ : فأهدى إلى الحجّاج في ولايته ملك جزيرة الياقوت (سيلان) نسوة ولدن في بلاده مسلمات ، ومات آباؤهنّ وكانوا تجاراً ، فأراد التقرّب بهنّ ، فعرض للسفينة التي كن فيها قوم من ميد (الدَّيْبُل) في بوارج ، فأخذوا السفينة بما فيها ، فنادت امرأة منهنّ ، وكانت من بني يَرْبُوع : « يا حجّاج ! » . وبلغ الحجّاج ذلك ، فقال : « يا لبّيك » ، فأرسل إلى داهر ملك السند يسأله تخلية النسوة ، فقال : «إنما أخذهم لصوص لا أقدر عليهم» ، فأغزى الحجّاج عُبَيْدَ الله بن نَبْهان (الدَّيْبُل) ، فقتل .

وكتب الحجّاج إلى بُدَيل بن طَهْفَة البَجَلِيّ وهو على (عُمان) يأمره أن يسير إلى (الدَّيْبُل) ، فلما لقي العدو هناك ، نفر به فرسه ، فطوّقه العدو وقتله ، وقيل : قتله زطٌّ (البُدْهة) [1] .

هناك تبدّى للحجاج مدى الاهانة التي تلحق بهيبة المسلمين وخطورتها إن هو سكت على هذا الأمر ، فما زال بالخليفة الوليد بن عبدالملك بن مروان ، حتى أذن له بتسيير الجند لفتح السِّند [2] ، وكان على السند حينذاك الملك البرهمي داهر [3] .

واختار الحجّاج ابن أخيه محمد بن القاسم ، وكان بفارس ، وكان قد أمره أن يسير إلى (الريّ) ، فردّه إليه ، وعقد له على ثغر السند وضمّ إليه ستة آلاف من جند أهل الشّام وخلقاً من غيرهم ، وجهّزه بكل ما احتاج إليه حتى الخيوط والابر . وأمره أن يقيم بـ (شيراز) حتى يتتام إليه أصحابه ويوافيه ما عُدّ له وعمد الحجّاج إلى القطن المحلوج ، فنُقع بالخل الحاذق ، ثم جُفِّف في الظلّ ، فقال : « إذا

(١) البدهة : ناحية بالسند ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٢/٩١) ، وأنظر ما جاء عن هذه الأحداث في فتوح البلدان (٦١٠ - ٦١٢) .
(٢) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/٥٨) .
(٣) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (١/٣٧) .

صرتم إلى السند ، فانّ الخلّ بها ضيّق ، فانقعوا هذا القطن في الماء ، ثم اطبخوا به واصطبغوا » . ويقال : « إنّ محمداً لما صار إلى الثغر ، كتب يشكو ضيق الخل عليهم ، فبعث إليه بالقطن المنقوع في الخل .

ومضى محمد إلى (مُكْران) ، فأقام أياماً ، ثم سار المسلمون من (مُكران) وهدفهم (الدَّيْبُل) في اثني عشر ألفاً من جند الشام والعراق ، وثلاثة آلاف بعير تحمل متاعهم . أما عتادهم الحربي فقد قام على تجهيزه لهم محمد بن هارون والى مُكران ، وقد اتخذ طريقه بحراً ، فالتقى الجيش بسفنه في ظاهر مدينة (الدَّيْبُل) في ربيع الأول من سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) .

وانضم إلى جيش المسلمين عند (الدَّيْبُل) جموع كثيرة من الميد والزط ، وهما قبيلتان سنديتان هاجر كثير من رجالهم إلى خارج بلادهم لفرط ما كانوا يعانونه من سوء معاملة الحكومة البرهميّة ، إذ كانوا في عداد المنبوذين الذين يحرم عليهم امتطاء الدواب وارتداء غالي الثياب ، ولم يكن يباح لهم من المهن والحرف إلا أدْناها وأدنؤها .

وأفاد المسلمون من رجال الميد والزط ، إلى جانب شجاعتهم في الحرب وشدّة جلدهم فيها ، معرفتهم بمسالك السند ودروبها وأحوال أهلها وأساليبهم في النزال .

وفي طريق الجيش الاسلامي إلى (الدَّيْبُل) افتتح محمد بن القاسم مدينة (فنزبور) ومدينة (أرمائيل) .

وسار محمد عن (أرمائيل) بعد فتحها ، وقدم (الدَّيْبُل) وهي قرب مدينة كراجي الحاليّة ، فخندق وأنزل الناس منازلهم ، ونصب منجنيقاً ضخماً يقال له : العروس ، الذي كان يعمل لتشغيله خمسمائة من الرجال ذوي الكفاية العالية المدربين على استعماله ، فدكّ معبد الهنادكة الأكبر (البُدّ) ، وكان على هذا البُدّ دقل عظيم وعلى الدّقل راية حمراء ، إذا هبّت الريح أطافت بالمدينة ، وكانت تدور .

والبُدّ منارة عظيمة يتّخذ في بناء لهم ، فيه صنم لهم ، أو أصنام يشهر بهـا ،

وقد يكون الصنم في داخل المنارة أيضاً ، وكلّ شيء أعظموه من طريق العبادة ، فهو بدّ ، والصنم بُدّ أيضاً .

وحاصر محمد (الدَّيْبُل) وقاتل حماتها بشدّة ، فخرجوا إليه ولكنه هزمهم حتى ردّهم إلى البلد ، ثم أمر بالسلالم فنصبت ، وصعد عليها الرجال ، وكان أولهم صعوداً رجل من بني مُراد من أهل الكوفة ، ففتحت المدينة عنوة ، فاستباحها محمد ثلاثة أيام ، ولكن عامل (داهر) استطاع النجاة بنفسه سالماً ، فأنزل محمد فيها أربعة آلاف من المسلمين ، وبنى مسجداً ، فكان أول مسجد بنى في هذه المنطقة .

وسار محمد عن (الدَّيْبُل DaibuL) إلى (النيرون) التي تعرف باسم : (نيرانكوت) وموقعها (حيدر آباد السند) الحالية ، وكان أهلها قد بعثوا إلى الحجّاج فصالحوه ، فلقوا محمد بالعلوفة وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصّلح .

وسار محمد عن (نيرون) ، وجعل لا يمرّ بمدينة إلاّ فتحها ، حتى عبر نهراً دون (مِهْران) وهو نهر السند ، فأتاه أهل (سربيدس) وصالحوه ، ففرض عليهم الخراج . وسار عنهم إلى (سبهان) ففتحها ، فسار إلى نهر السِّند ، فنزل هناك . وبلغ داهر ، فاستعدّ لمجابهة جيش المسلمين .

وعبر محمد نهر السِّند (مِهْرَان) على جسر عقده ، فالتقى بداهر وجيشه ، فاشتدّ القتال بشكل لم يسمع بمثله .

وترجّل داهر عن فيله ، وقاتل حتى قتل عند المساء ، فانهزم أصحابه وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا .

ولما قتل داهر ، غلب محمد على بلاد السِّند ، ففتح (رَاوَر) — وهي مدينة كبيرة بالسِّند — عنوة .

وتقدّم المسلمون بعد ذلك صوب الشمال مشرّقين حتى بلغوا (برهمنآباد) على فرسخين من مدينة (المنصورة) ، وكان المنهزمون من أصحاب داهر يدافعون عنها ، ففتحها محمد وقتل بها بشراً كثيراً وخرّبها .

وسار محمد يريد (الرُّور) و (بغرور) ، والرور ناحية بالسِّند تقرب من (المُلْتَان) في الكبر ، وبغرور بلد بالقرب من الرّور ، فسأله أهل البلدين الأمان ، فأعطاهم إياه ، وقد اسلموا بعد ذلك .

وقد كانت (الرّور) عاصمة الملك داهر .

وعبر المسلمون بعد ذلك نهر (بَياس) أحد روافد نهر السِّند إلى (المُلْتَان) أعظم مدن السِّند الأعلى وأقوى حصونه ، فامتنعت عليهم شهوراً ، نفدت خلالها مؤمنتهم ، فطعموا الحُمُرْ حتى أتاهم رجل مستأمن دلّهم على مدخل الماء الذي يشرب منه السكّان ، فقطعوه عليهم ، وقاتل الهنود المسلمين قتالاً شديداً استمر أياماً سبعة ، اقتحم المسلمون الأسوار من بعدها وفتحوا (المُلْتان) .

وفي (المُلْتان) آخر حصون السِّند الكبرى ، أقبل على محمد بن القاسم الأعيان والتجار وأرباب الحرف ، في عدد كبير من سكّان الأقاليم المجاورة من رجال الميد والزط (الجات) الذين كانوا يعانون من ظلم البراهمة ، والذين بلغهم الكثير عن تسامح هذا القائد العربيّ المسلم ، فأعلنوا جميعاً ولاءهم له ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم .

وأصاب محمد مالاً كثيراً ، جُمع في بيت طوله عشرة أذرع وعرضه ثمانية أذرع ، يُلقى إليه المال من كوّة في وسطه ، فسميت (المُلْتَان) : فَرْج (ثغر) الذهب . وكان (بُدّ) الملتانّ (بُدّاً) تهدى إليه الأموال ، وتنذر له النذور ، ويحجّ إليه أهل السِّند ، فيطوفون به ، ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده ، ويزعمون أنّ صنماً فيه هو أيوب النبيّ عليه الصّلاة والسّلام .

وعظمت فتوح محمد ، فراجع الحجّاج حساب نفقاته على هذه الحملة ، فكانت ستين ألف ألف درهم ، فحمل إليه محمد ضعف هذا المبلغ ، فقال الحجّاج : « شفينا غيظنا ، وأدركنا ثأرنا ، وازددنا ستين ألف ألف درهم ورأس داهر » .

لقد أنجز محمد هذا الفتح كلّه بين سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) وسنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢ م) .

ومات الحجّاج بن يوسف الثّقَفيّ والى (العِراقَيْن) سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٧ م) ، وكان محمد بن القاسم في (المُلْتان) ، فرجع إلى (الرُّور) و (البغرور) ، وكان قد فتحهما ، فأعطى الناس ووجّه جيشاً إلى (البَيْلَمَان) وهي منطقة من أرض السِّند والهند، ففتحوها صلحاً . وسالمه أهل (سُرَسْت) وهي مغزى أهل البصرة ، وأهلها من (الميد) الذين يعملون في البحر .

وأتى محمد (الكيرج) وهي مدينة (بومباي) كما يطلق عليها اليوم ، وكانت مدينة مقدّسة عند أهل البلاد ، فخرج إليه الملك (دوهر) الذي كان ملكاً قديراً ، فقاتله محمد ، فهرب دوهر ومعه جيشه . وقيل : إنه قتل ، فنزل أهل المدينة على حكم محمد ، فقتل وسبى .

وبينما كان محمد ينتقل من نصر إلى نصر ، ويستعدّ لفتح مملكة (قَنّوج) أعظم إمارات الهند ، وكانت تمتد من السِّند إلى (البنغال) ، وكان قد أوفد بَعْثَة إلى ملكها تدعوه إلى الاسلام أو الجزية ، فردّ الملكُ الوفَد ردّاً غير كريم ، فأخذ محمد يُعدّ العُدّة لفتحها ، وجهّز جيشاً فيه عشرة آلاف من الفرسان . . . وفي الوقت الذي أمّل محمد فيه أن يضمّ مملكة الهند الشمالية وعاصمتها (قَنُّوج) إلى ما فتحه من بلاد الهند ، إذ جاءه خبر وفاة الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك بن مروان ، وكان سنده وسند الحجّاج بن يوسف الثقفي أيضاً ، وتولية سليمان بن عبدالملك عدو الحجّاج وأسرته ،فولى سليمان بن عبدالملك يزيد ابن أبي كبشة السَّكْسَكِيّ السِّند ، وعزل محمد بن القاسم [1] .

ومات يزيد ابن أبي كبشة بعد قدومه أرض السِّند بثمانية عشر يوماً ، وأدرى

---

(١) أنظر التفاصيل في : فتوح البلدان (٦١٢ - ٦١٨) وابن الأثير (٥٣٦/٤ - ٥٣٩) ، وأنظر سيرة محمد بن القاسم في هذا الكتاب ، وأنظر تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم (٥٨/١ - ٦٥) . وأنظر ضحى الاسلام (٢٣٠/١) .

وأدى اضطراب الأحوال إلى أن انتهز جاي سنك[1] بن داهر هذه الفرصة ، فانقض على مدينة (براهمناآباد) واستخلصها لنفسه ، فلم يستطع حبيب بن المهلّب ابن أبي صُفْرة الذي ولاه السِّند سليمان بن عبدالملك أن يستردّها منه .

ومات سليمان بن عبدالملك ، فخلفه عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، فكتب إلى الملوك يدعوهم إلى الأسلام والطّاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، فأسلم جاي سنك بن داهر وغيره من ملوك الهند ، وتسمّوا بأسماء العرب وولىّ عمر بن عبدالعزيز عمرو بن مُسْلم الباهلي أخا قُتَيْبَة بن مسلم الباهليّ ثغر الهند ، فصادفه شيْ من النصر .

وحاول بعض المهالبة الذين هربوا إلى السِّند في أيام يزيد بن عبدالملك السيطرة على ما فتحه المسلمون في الهند والاستقلال به عن الأمويين ، فوجّه إليهم يزيد بن عبدالملك هلال بن أحوَز التّميمي ، فلقيهم هناك وقتل مُدْرِك بن المهلّب بقَنْدابيل ، وقتل المُفَضَّل ، وعبدالملك ، وزياد ، ومروان ، ومعاوية بني المهلّب أيضاً .

وهكذا كان العرب المسلمون يقاتلون أعداءهم ، فأصبحوا يقتتلون بينهم ، وكانت سيوفهم على أعدائهم ، فأصبحت سيوفهم عليهم .

وصار أمر السِّند في عهد هشام بن عبدالملك إلى الجُنَيْد بن عبدالرحمن المُرِيّ ، فأتى الجُنَيد (الدَّيْبُل) ثم نزل شط (مِهْران) ، فمنعه جاي سنك بن داهِر العبور ، وأرسل إليه : « إني قد أسلمتُ ، وولاني الرجل الصّالح[2] بلادي ، ولستُ آمنك » ، فأعطاه رهناً ، وأخذ منه رهناً بما على بلاده من الخراج ، ثم إنهما ترادا الرّهن . وكفرجيش ابن داهر وحارب المسلمين ، وقيل : إنه لم يحارب ، ولكن الجنيد يجني عليه . وسار الجنيد إلى جيش ابن داهر ، فانتصر المسلمون واسترد الجنيد (برهمناآباد) وقتل ابن داهر غدراً .

---

(١) تطلق عليه المصادر العربية : حبشة بن داهر ، انظر مثلا فتوح البلدان (٦٢٠) .

(٢) يريد : عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه .

وتولى بعد الجُنَيد ، تميم بن زيد العتبي ، فضعف ووهن ، ومات قريباً من (الدريْبُل) ، وكان تميم من أسخياء العرب ، ولكنه كان ضعيفاً متردداً ، فضيّع بضعفه وتردده كل ما بذله سلفه من جهود .

وجاء السِّند من بعد ذلك الحكمُ بن عوانة الكلبيّ ، وقد كفر أهل الهند ، وكان بصحبته عمرو بن محمد الثقفي ، وفي عهدهما بنيت مدينتا المحفوظة والمنصورة [1] على شاطئ السِّند غير بعيد من (برهمنآباد) ، فصارت الأخيرة (المنصورة) حاضرة المسلمين . وقتل الحكم فانفرد عمرو بن محمد بن القاسم بالحكم ، فنهج نهج أبيه محمد بن القاسم ، فأحيا سيرة أبيه في العدل والحزم ومعاملة الهنادكة معاملة حسنة .

وتولى يزيد بن غرار السِّند بعد عمرو بن محمد بن القاسم ، فاقتحم السند عليه ثائر من الخارجين على سلطان الخلافة الأمويّة يدعى : منصور بن جمهور الكلبي ، فاغتصب هذه الامارة سنة ثلاثين ومائة الهجرية لنفسه (٧٤٧ م)

وقضى العباسيون على الخلافة الأموية ، فعهد السفّاح أول خلفائهم بأمر الأقاليم الاسلاميّة إلى نصيره أبي مُسلم الخُراساني الذي بعث بدوره إلى السِّند بعبدالرحمن ابن أبي مُسلم العَبْدِيّ ، ليخفق في طرد جمهور بن منصور الكلبيّ ويلاقي حتفه على يديه .

وخلفه موسى بن كعب التميمي ، فما زال بالثائر جمهور بن منصور الكلبيّ يطارده ، إلى أن هلك في الصحراء عطشاً .

تلك هي مجمل قصة فتح الهند منذ حاول المسلمون فتحها على عهد عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى أن تولى العباسيون بعد القضاء على بني أُميّة .

والذي فتح الهند بحق هم الأمويون أيام دولتهم :

(١) موقعها اليوم مشارف حيدر آباد السند .

لقد كانت محاولات الفتح قبل محمد بن القاسم عبارة عن غارات استطلاعية أو غزوات ذات طابع محدود ، لاعتمادها على الجيوش المحليّة للأمراء المحليين ، وهي قوات على كل حال قليلة العدد قليلة المدد .

لذلك كان نجاح الفاتحين محليّاً ومحدوداً .

ولأول مرة في عهد الحجّاج بن يوسف الثّقفي والى (العِراقَيْن) ، وبقيادة محمد ابن القاسم الثقفي ، على عهد الوليد بن‌عبدالملك بن مروان ، زُجّ بجيش الدولة وطاقاتها لفتح الهند ، فكان الجيش مؤلفاً من قوّات عراقيّة وقوّات شاميّة ، لذلك نجح الفتح بشكل سريع وبنطاق واسع ، فكانت فتوح محمد بن القاسم ليس فتحاً بل حشراً – على حد تعبير موسى بن نُصَيْر [1] في رسالته إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك واصفاً فتح الأندلس : « إنها ليست كالفتوح ، ولكنها الحَشْرُ » .

ومع إدخال كفاية محمد بن القاسم القياديّة الفذّة في الحساب ، وأثر تلك الكفاية في الفتح ، إلاّ أنّ مشاركة جيش الدولة وزجّ كلّ طاقاتها الادارية لانجاح هذا الجيش في تحقيق أهدافه ، كان له أثر كبير في تحقيق أهداف الفتح .

إنّ فتوح مَن سبق محمد بن القاسم في الهند ومَن لحقه على عهد الدولة الأمويّة ، كانت فتوحاً تعبوية .

أما فتوح محمد بن القاسم وحده ، فكانت فتوحات سَوْقية .

وقبل أن ننتهي من أمر الفتح الاسلامي في الهند ، لا بدّ من أن نلفت النظر إلى (فرية) طالما ردّدها أعداء العرب والمسلمين من الاجانب ، والهدف منها التهوين من أمر الفتح الأسلامي في الهند وفي غيره من الفتوحات الاسلامية شرقاً وغرباً .

وتقول هذه (الفرية) : إن الهنود كانوا ضعفاء ، ولهذا انتصر عليهم المسلمون ! !

(١) أنظر سيرته المفصلة في كتابنا : قادة فتح المغرب العربي (١/٢٢١ – ٣٠٩) .

وكمثال على ذلك قولهم : « إنّ توفر مقامات الحضارة والمدنية العريقة عند الهنود ، لم تمنعهم من انقسامهم على أنفسهم وتناحرهم فيما بينهم على النفوذ والسلطان ، حتى سقطوا آخر الأمر وبلادهم فريسة غير صعبة للغزاة والفاتحين ! ! » .

ولو اقتصر الأمر على (فرية) الأجانب الحاقدين على العرب والمسلمين ، لهان الخَطب ولسكتنا عنهم ، لتفاهة هذه الفرية وتهافتها وبعدها عن الصدق والحق .

ولكن هذه الفرية نقلها أبناؤنا العرب والمسلمون عن الأجانب الحاقدين إلى مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا ، ولقنوها للتلاميذ والطلاب ، ونقلوها إلى نصوص محاضراتهم ومؤلفاتهم نقلاً لا يدلّ إلاّ على الغباء المقيت .

لذلك كان لزاماً علينا أن نردّ على هذه (الفرية) على الرغم من أنها لا تستحق الرد ، لأنّ بواعثها مكشوفة ، حرصاً على عقول المعلمين والأساتذة والتلاميذ والطلاب العرب المسلمين وإظهاراً للحق الواضح الصريح .

إنّ ضعف أمة من الأمم ، لا يفسح المجال لغيرها من الأمم أن تنتصر ؛ فلا بد من أن تتوفر شروط معيّنة في أمة من الأمم لتحرز النصر .

وضعف الهنود وغيرهم من الأمم ، لم يكن السبب الأول والأخير لانتصار العرب المسلمين عليهم .

وقد صادف العرب المسلمون في الهند حضارة من أعرق الحضارات ، ودولاً قائمة ذات تقاليد عسكرية عريقة ، وتفوّق في تعداد النفوس تفوقاً كاسحاً .

وفي السِّند بالذات ، كان الملك داهر من أقوى الملوك البراهمة ، وهو الذي أنقذ السِّند من الآريين بعد أن سيطروا عليه قروناً طويلة ، وهو الذي وجده المسلمون على هذا الأقليم أيام الفتح ، فليس من السهل الانتصار عليه وهو الملك القائد المنقذ .

وقد قُتل داهر بعد معارك طاحنة دارت بين جيشه من جهة وجيش المسلمين من جهة أخرى ، فخلفه ابنه الذي أعلن إسلامه واستبدل باسمه اسماً عربياً .

وقد أحصيتُ عدد الذين تولّوا ثغر الهند على عهد بني أمية ، فوجدتهم خمسة عشر والياً ، مات منهم خارج الهند سبعة ، وقتل منهم أو مات في الهند ثمانية ، أي انّ معدّل الخسائر في الولاة وهم قادة الفتح ستون بالمائة .

وهذا معدل رهيب ، يدل دلالة واضحة على أنّ الفتح الاسلامي في الهند لم يكن نزهة من النزهات الترفيهية ، بل كان جهاداً رهيباً أساسه الجماجم والأرواح .

ولست أطمع في أن أُغيِّر أفكار أعداء العرب والمسلمين ، فهم يعرفون الحق ولكنهم يزيغون عنه ، ولكنني أطمح أن أعيد المغرّر بهم من العرب والمسلمين إلى طريق الصواب ولا أريد أن أشقّ على أحد ، ولكن أريد منهم أن يقرأوا مجرى معارك الفتح ، ليقرِّروا بأنفسهم مبلغ ما بذله المسلمون الفاتحون من تضحيات جسام ، وليعلموا أن الفتح الاسلامي في جميع الجبهات لم يكن نزهة ترفيهية ، بل كان جهاداً صعباً .

* * *